العطس
في طبق الحياة

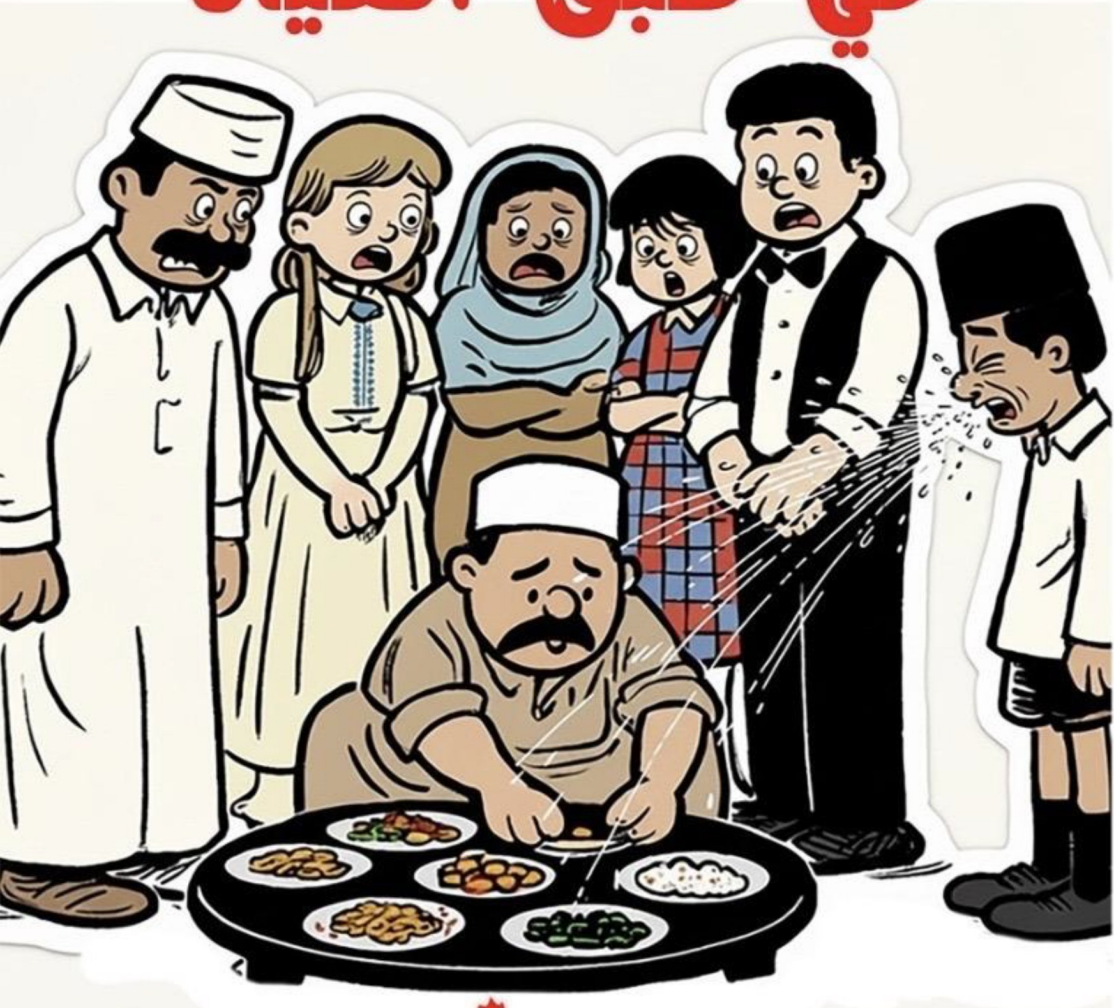

ايمن جبر

العطسُ في طبق الحياة

أيمن جبر

سلسلة كتاب طيوف

المشرف الأدبي
السيد حسن
المدير التنفيذي
هناء أمين

الكتاب: العطس في طبق الحياة
اسم المؤلف: أيمن جبر
المقاس: 20x14
رقم الإيداع: 2026/2827م.
الترقيم الدولي: 978 - 633- 99945 - 1 - 7

العنوان: 298 شارع فيصل - محطة ضياء
موقعنا على الفيس بوك: سلسلة كتاب طيوف
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى زوجتي...

عَزَّة

مقدمة

في مشهد مسرحي من «بين القصرين»، يقف الأبناء والبنات ينتظرون «السيد أحمد عبد الجواد»، الجالس وحده إلى الطبلية العامرة، حتى يفرغ من طعامه، وما إن ينتهي، حتى يهوي الجميع على المائدة، ومعهم الولد الصغير القصير الذي يخشى أن يضيع بينهم فلا ينال نصيبه؛ ففمه صغير، ويده قصيرة، ولقمته ضئيلة، فلم يجد وسيلة سوى أن يعطس في الطبلية بما عليها.

تقزز الإخوة الكبار، وقاموا وهم يشعرون بالقرف، تاركين له المائدة، يلعنونه ويسبّونه، بينما جلس يأكل ويشبع. وبعد أن ملأ بطن العصفور، ترك الطبلية عامرة، لتُلقى في القمامة.

كلما تخيلت مجتمعنا في فوضاه اليوم، قفزت هذه الصورة إلى ذهني، كأنها لوحة مكثفة لتسابق الناس على العطس في أطباق بعضهم بعضًا.

وراء ما فعله الصبي خوفٌ بسيط: أن يبتلع إخوته الكبار نصيبه قبل أن تمتد يده. والخوف هو المحرك الخفي لكثير من الضرر الذي ينفلت من الناس في المجتمعات، وربما لو ضُمن لكل إنسان حقه، لجفّت

مستنقعات شرور من هذا النوع. فالمرتشي لا يتناول سوى «لقمة صغيرة»، متعللًا بضآلة مرتبه وخوف الفقر، لكن هذه اللقمة تتحول إلى ثغرة في بناء كبير، تتسع وتتسع، حتى ينهار البناء كله؛ بناء لا تهدمه مئات القنابل، وتهدمه يد بشرية امتدت لتقبض على ورقة مالية صغيرة.

ويمكن تسمية هذا السلوك بـ «الأنانية الوقائية»: أن يسبق الإنسان إلى الإفساد لا حبًا في الخراب، بل خوفًا من أن يُحرَم، فيُفضّل تلويث المشترك على أن يخاطر بأن يخرج منه صفر اليدين، غير مدرك أن ما يحميه لحظةً، يهدم ما يحمله طويلًا.

في العالم قصص معروفة عن بنايات تهدمت فجأة على ساكنيها بفعل زلزال، بينما ظلت مبانٍ مجاورة قائمة. ثم يتبين أن السبب قيام بعض السكان بإزالة عمود داخل شققهم لتوسيع المكان، بوهمٍ قاتل أن العمود ملك شخصي.. وهكذا يقتل الوهم آلاف الأبرياء، بعطسة واحدة في حياة الآخرين.

وتُروى قصص عن أن اختراقًا استخباراتيًا في الاتحاد السوفيتي اقتصر على دفع مسؤولين كبار إلى تعيين غير الأكفاء في مواقع القرار.

عطسٌ إداري صامت، انتشر في جسد المؤسسات، وكان له - كما يُقال - دور في انهيار دولة كاملة.

فالعطس لا يفسد الطبق وحده، بل يفسد الشهية، ويعلّم الجالسين أن القذارة وسيلة نجاة. وحين يتعلم الجميع ذلك، لا يبقى على المائدة سوى القمامة.

***

الحقيقة العارية

يحكي أحمد أمين في (فيض الخاطر)، أن رئيس وزراء الصين استطاع، قبل ستة قرون من الميلاد، أن يجمع ثلاث عشرة دولة متنافرة حول معاهدة سلام ظنّها الناس إنجازًا يطوي صفحة الصراع. انطلقت التهاني، وارتفعت أصوات المديح، إلا صديقه الأقرب؛ فقد نظر إلى الورقة يعلوها الختم وقال له: « مشروعك ليس إلا مجرد أوهام، ولا يستحق تكريمًا، بل عقابًا قاسيًا، لأنك غطيت وجه الحقيقة، وكان يجب أن تظل الحقيقة عارية حتى لا يضل الناس).» وبعد أعوام قليلة تهاوت المعاهدة، وعادت الدول إلى سيوفها الأولى.

وهنا تتجلّى الحكمة: فالاتفاق الذي لا يلامس جذور الخصومة يشبه طلاء سطح حائطٍ مشقق، بينما الشرخ يواصل نموّه في الداخل. ويُشبه جرحًا يُطهّر ظاهره ويظلّ صديده حبيس العمق. فالثلاث عشرة دولة؛ اكتفت بكتابة السلام دون صناعة شروطه. فالسلام لا يُكتب بالحبر، بل يُبنى حين تُقتلع من النفوس أسباب الكراهية: ما أورثته السنوات من خصومات، وما أجّجته المصالح من طمعٍ وتنافس. وكل معاهدة تتجاهل هذه الجذور تظل هشّة، يكفيها هبوبٌ خفيف لتتداعى.

***

التاريخ والهويّة

أقرأ أحيانًا كتب التاريخ التي يصرّ بعض المؤرخين فيها على سرد كل الأحداث بالهجري، فأخرج من المحاضرة مثقلاً بالتقليب بين الأزمنة.

التاريخ يفترض أن يرسم خطًّا واضحًا في الذهن، لكن اضطراري لتحويل كل تاريخ هجري إلى ميلادي لأربطه بخريطة العالم يجعل الخيط يتداخل.

كان الاعتماد على الهجري اجتهادًا علميًا لا دينًا، ولما كانت الحضارة الإسلامية في الصدارة صار الهجري عالميًا، فلما تراجعتْ تقدّم الميلادي. واليوم يشبه ذهن القارئ ذهن الطفل الذي تتزاحم في لغته العربية والإنجليزية، فتتشابك المفردات وتتداخل المعاني.

والواقع الآن أن دراسة الحضارات الحديثة تُبنى على الميلادي، بينما كان استخدام الهجري يحتاج أن يكون مبكرًا وشاملًا ليترسخ. أمّا المزج غير المحسوب بين التاريخين، فهو يربك فهم الماضي كما تربك معاهدة سلام تُوقّع قبل إزالة جذور الحرب.

***

الكنيات والألقاب

على عكس نظرية شق الحائط، هناك معاملات اجتماعية تبدو سهلة وبسيطة، لكنها تتعقّد بفعل الإنسان. مثال واضح على ذلك هو «الكنى والألقاب». فحين يُلقّب العربي بـ«أبو فلان»، يُحَمّل ذهنه عبء حفظ الاسم واللقب معًا، ثم تمتد هذه العادة لتشمل جميع معارفه، فتصبح كل المحادثات اليومية متشابكة بالذاكرة المزدوجة.

ويقال إن اللقب يزيد التودد والمودة، لكن التجربة تقول غير ذلك: ما يزداد غالبًا هو الارتباك، وقد يحل محل صدق العلاقات مزيج من المجاملة والنفاق والمراوغة. فالإنسان، في جوهره، له اسم واحد، وما يقرب القلوب ليس كثرة الألقاب، بل صدق النية، وطمأنينة الصدر، ومرونة القلوب التي تسمح بالتفاهم دون حواجز.

نهتم أحيانًا بتعقيد الأمور أكثر، فإلى جانب الكنيات هناك الألقاب: المهندس، الطبيب، اللواء... في العمل قد يكون اللقب مفيدًا، لكنه خارج هذا الإطار يتحول إلى جدار خفي بين الناس، يذكّر بالمرتبة الاجتماعية ويزرع مسافات غير مرئية. حتى بعد الرحيل، لا يزول أثره؛ فحين يُذكَر المرء بعد موته يُقال: «توفي إلى رحمة الله اللواء فلان، أو الطبيب فلان»، وكأن الفوارق الاجتماعية تستمر في حجز مكانه بين الأحياء. في المجتمعات التي ما تزال تعطي المنصب والرتبة قيمة أعلى من الإنسان ذاته، تتحول العلاقات البسيطة والطبيعية إلى مسارات محفوفة بالعقبات، وتفقد الدفء الإنساني، ويصبح التواصل الرسمي بديلاً عن الحميمية التي كان يمكن أن تجمع القلوب.

استعجال العلاقات

معاهدات السلام، التقرّب بالكنيات، والتمسك بالمظاهر، تذكرني بخطيبين يفيضان حبًا على وسائل التواصل: صور، قلوب، ابتسامات، دباديب، ونظرات هيام. ثم يحدث انفصال مدوٍ، يوقظ الجميع على الحقيقة. درس لا يُنسى: استعجال العلاقة قبل أوانها، التفاخر بمجوهرات الحب قبل أن تثمر، مجرد عرض على السطح مزين بلا عمق.

***

جمال المظاهر والزيف

تطورت عادة التجميل إلى حد أصبح من النادر أن تخرج الفتاة أو تفتح الباب دون زينة. في الأفراح كانت العروس وحدها تتزين، أما اليوم، أصبح الجميع يلمعون كنجوم الفن، ووجوه نجمات السينما أصبحت خشبية، بعد أن أضعفت عمليات التجميل الحيوية والنضارة الطبيعية. هذا التزيّن صار تزويرًا للواقع وتمردًا عليه، فالجمال الحقيقي لا يزول مع الزمن: الطباع، المهارات، الآداب، والفنون—مساحيق دائمة. ومع ذلك، نستمر في سباق الزيف، نزين السطح ونخفي العمق، وننسى أن القلب يعرف الجمال الحقيقي فقط من صدق الإنسان وروحه.

***

النفاق والحرية

كتب كثير من المفكرين والأدباء العرب عن الفارق الكبير بين مستوى النفاق في الغرب والعالم العربي. في الغرب، يستطيع الإنسان البوح بما يريد بحرية، ولا يخجل من التعبير عن مكنون نفسه وواقع حاله، دون ضغوط اجتماعية. أما في العالم العربي، فالولد أو البنت لا يستطيعان التعبير عن آرائهما أمام الأب، الأم، المدرس، الجار أو الأقارب، والموظف لا يبوح برأيه أمام رئيسه. المناخ العربي سلطوي، ويمنع حرية البوح تحت شعارات مطاطة نسميها «الأدب، الحياء، العفة، الاحترام، الحشمة، الذوق، احترام الكبير». النتيجة أن الكثير من العرب يبتلعون كلماتهم، ويكتفون بالتملق، فينتج عن ذلك «نفاق، وكذب، وجبن، ومكر، وخبث، وغدر». الحقيقة تحتاج إلى حرية، ولابد أن يتحرر المجتمع لتتحرر الحقيقة.

في المجتمع الحر، من يحب أو يكره، يرغب أو يمنع، يعبر عن مشاعره وأفكاره علنًا بلا خوف من كلام الناس أو عقاب السلطة، لأن القانون واضح ومعروف ومطبق. أما في عالمنا العربي، هناك قوانين رسمية واجتماعية كثيرة، لكنها غير مكتوبة، فتظل الحقيقة مخفية، مسجونة خلف ثنايا المجاملات والخوف، لا ترى النور إلا نادرًا... وليتهم تركوها عارية.

***

الشباب والحقيقة

الشباب اليوم يجدون صعوبة في النطق بالحقيقة ومواجهتها. وفي الوقت نفسه، يدفنون رؤوسهم ووعيهم في الشاشات، يغرقون في حياة متوهمة، يركضون خلف صور وألعاب وعبارات مصقولة، هاربين من واقعهم، كما لو أن العالم الافتراضي يغطّي الشمس عن أعينهم.

هذا هروب اختياري، سببه غياب الحرية؛ فالعالم بلا حرية لا يغريك بالمشاركة فيه، خاصة حين تعلم أن ثمن الحرية أصبح فادحًا. كل الشخصيات الأكاديمية الشهيرة التي تندب الشباب وتنقد شرنقتهم أمام الشاشة، لو وجهوا كلامهم للسلطة والمجتمع وطالبوا بفك القيود السياسية والاجتماعية، ستكون المفاجأة في انصراف الشباب تمامًا عن الشاشة. حينها، سيتدافعون إلى الواقع، يمنحونه رأيهم وجهدهم، ويتحملون كلفة التغيير عن طيب خاطر وبنبل، لأنهم ولأول مرة يشعرون بأنه واقعهم.

هؤلاء الشباب ليسوا غائبين، بل مغيّبون، والسر في الحرية، الحرية في تعرية الحقيقة. وكما يقول المثل: «وما حك جلدك مثل ظفرك»، فالمسؤولية تبدأ من داخل النفس قبل أن تُطالب بها المجتمعات أو الحكومات.

***

العلم والمعرفة هما الحل.

كنا نعتقد أن العصبية، البخل، الخجل، وغيرها من الطباع، أمراض مزمنة لا مفر منها، ولكن العلم الحديث كشف أنها ليست إلا أمراض قابلة للعلاج بسهولة. لم تعد عصبية الأب أو الأم قدراً محتوماً يزرع العُقد في نفوس الأولاد، بل مرضًا يحتاج إلى علاج نفسي متخصص، فيشفى الإنسان ويستعيد هدوءه وتوازنه.

حتى من ابتلي بوصف «زير نساء» أو يعاني البخل، يمكنه التوجه للطبيب، الذي يحلل الأسباب والدوافع ويعالجها، فتعود النفس متزنة، والقلب صافيًا، والعلاقات أكثر صحة. بهذا يتضح أن الحقائق اليوم أقرب وأسهل بالعلم والمعرفة؛ لم تعد الأمراض تُستتر وتُنسب للطباع أو الأخلاق، بل تُفهم وتُعالَج على يد متخصصين، فتتبدد الغشاوة عن النفس، ويستعيد الإنسان وعيه وسلامه، فتتحسن جودة الحياة، ويصبح أكثر قدرة على مواجهة الواقع والتعامل مع الآخرين بصدق وانفتاح.

الحقيقة العارية ليست مجرد كشف للعيوب أو الأخطاء، بل تحرير للنفس والمجتمع معًا. العلم والمعرفة لا يكشفان الغطاء عن الحقيقة فقط، بل يمنحاننا القدرة على عيشها بحكمة، وعيش أنفسنا بحرية ووعي وسلام.

تلقين الحلم الضال

أتذكر صديقًا في شبابي؛ كان كلما مرت أمامنا سيارة مرسيدس، يعلّق بلهفة مصطنعة وانفعال مبالغ فيه: «أركبها ساعة واحدة ولو كان الثمن أنْ تَدْهسني». كلمات تبدو مزاحًا، لكنها تكشف انهيارًا نفسيًا أمام بريق المغريات الضخمة.

كما يحدث مع مريض مزمن في الرئة: أثمن ما يملك ليست المجوهرات أو السيارات، بل دواء الشفاء؛ فالقيمة تنبع من الحاجة الماسّة. في الصحراء، يصبح الماء الدنيا، وتصبح الجواهر والرمال سواء.

***

أرى هذه الآية مثالًا للتروي وضبط الانفعالات:

«فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ» (الروم – 60).

حين تهب عاصفة تقتلع وتحرك الاشياء الأقل وزنا، لأنها خفيفة وبلا جذور.

«الصبر في الآية ليس مجرد احتمال، بل قدرة على حماية مركزك الداخلي. فالشخص الذي بلا مركز يسعى — من حيث لا يشعر - إلى خلق دوائر اضطراب حوله، لأن الفوضى الخارجية تخفف من فوضاه الداخلية. ومن هنا يحاول سحبك من منطقة العقل إلى منطقة الانفعال؛ فضعف اليقين ينتشر سريعًا، تمامًا كالأمراض الفيروسية التي تنتقل بالاحتكاك. **ولذلك جاء التحذير**: لا تجعل اضطرابهم يحدد إيقاعك.»

***

داخل قاعة سينما كبيرة، صرخ أحدهم: «المبنى يحترق**!**»

المشهد الأول:

اندفع الجمهور مذعورين، يتكدّسون ويتزاحمون عند المخرج، يسقط بعضهم ويتعثّر آخرون، وترتفع الصرخات من كل اتجاه. هنا لم يكن الخطر في النار، بل في التدافع العشوائي والذعر الجماعي الذي يصنع الكارثة قبل وصول الناس إلى الأمان.

المشهد الثاني:

شخص واحد - أو أكثر - من بين الحاضرين لم «يُسْتَخَفّ»، بل وقف بثبات، يرفع يده وصوته داعيًا الناس إلى الهدوء، موجِّههم نحو الخروج المنظّم، خطوةً خطوة. لم يقع أحد، ولم تُسجّل أي إصابة.

المشهدان يجسدان درسًا عظيمًا: امتلاك فرد أو أفراد، وعيهم وثباتهم، في لحظات الزعر الجماعي، قد ينقذ المئات وربما آلاف الأرواح، وإلا ستكون النتيجة كارثية.

وهذا بالضبط ما أنشده اليوم في شعوبنا المصرية والعربية، لأن الفوضى والفشل الاجتماعي لا يتصاعد إلا حين تغيب النخبة المحصنة ضد الاستخفاف، أو يُكتم صوتها.

***

أعتبر فيلم «الشيطان يرتدي برادا» - (The Devil Wears Prada)، من أعظم الأفلام التي شاهدتها، لأنه يجسد «الاستخفاف»، ويعرض قصة للهروب من سحره وقيده.

الجملة التي تتردد وتلخص الفكرة الجوهرية هي:

«هناك مليون بنت تَقتل نفسها من أجل أن تنال وظيفتك».

يحكي الفيلم عن فتاة ذكية، ترتدي ملابس بسيطة وعملية، وتعمل في مؤسسة عالمية لصناعة الموضة. السيدة الشهيرة التي تقود الشركة، ضاقت ذرعًا بالفتيات الحاصلات على شهادات عليا وخبرات واسعة، فقررت تعيين شخص جديد من خارج المجال، ربما يضيف منظورًا مختلفًا للصنعة. نجحت الفتاة بفضل موهبتها، وأثبتت كفاءتها، لكنها وجدت نفسها لا إراديا، مدفوعة بقوة للاندماج في "ماكينة العمل" الصارمة والمتوترة.

انخرطت في سباقٍ مُرهق لإرضاء «النجمة» التي تُعامل كإلهٍ صغير، يدور الجميع في فلكها. والموظفون مجرد أدواتٍ لتنفيذ أوامرها، وانزلقت هي — من حيث لا تشعر — إلى دائرة الولاء الكامل؛ تُسخِّر وقتها وطاقتها لإشباع أي نزوة تخطر في بال سيدتها. لكن كما يقولون: كل نجاحٍ له ثمن. شيئًا فشيئًا، بدأت صدوعٌ دقيقة تظهر في علاقاتها القديمة، وراح التوتر يتسلل إلى حياتها العاطفية، كعلامة على أن ما تكسبه في العمل، تخسره - بصمت - في مكانٍ آخر.

***

أتذكر مشهدًا لمدرس يطلب من طفل أن يصفع زميله لأنه أخطأ، مهددًا إياه بصفعات متتالية إذا لم يفعل. لم يجد الطفل خيارًا سوى الطاعة، ومع الصفعة ينطبع في نفسه أول ندبة من الذل والقسوة والهزيمة النفسية. هذا الدرس المبكر يزرع في الإنسان منذ طفولته فكرة الصراع والأنا: أن يطأ أو يحطم الآخرين لتجنب الألم أو لتحقيق مصلحة أو النجاة من تهديد متوهم.

كم طفل يمتلك الوعي ليقول للمدرس: «لن أطيعك ولن أصفع زميلي»؟

وهل يملك الطفل وعيا؟

الواقع أن معظم الإنسان يظل طفل الوعي حتى يغادر الحياة، وخياراته دائما تستجيب لخبرة الصفعة الأولى، والتي ربما تبعها صفعات، فيصبح سريع «الاستخفاف».

***

حين يُستخَفّ الإنسان، يُنتزع من ثباته الداخلي ويُدفع - دون أن يشعر - إلى سلوكيات ليست منه، كريشةٍ تتقاذفها التيارات.

تأمّل شابًا نقيّ السريرة يعمل في شركة مقاولات: يدخل بيئة يرى فيها التزوير أمرًا مألوفًا، والسمسرة «ذكاءً» مهنيًا، والنفاق مهارة لإرضاء الرؤساء. لا ينوي تقليد أحد، لكنه وسط هذا الطوفان يفقد حدّة حسّه، فيلين ضميره قليلًا، ثم أكثر، حتى يصبح ما كان يستنكره بالأمس جزءًا من يومه.

ومع الزمن، قد يفيق فجأة كمن يلتفت فيرى وجهًا غريبًا يشبهه؛ فينكر نفسه، ويحاول استعادة صفاءه الأول. ورغم أن العودة من هذا المنحدر ممكنة، إلا أن الواقع يخبرنا أنه قليل من يعود بالطهارة ذاتها، بل بملامح جديدة رسمتها التجارب والخدوش.

***

في الفيلم أصابت الفتاة عدوى التسابق والقسوة، وجدت نفسها تتصارع من أجل شنطة أو حذاء أو حِزام أو فستان، فهي تعمل مع أرقى دار تصميم أزياء في العالم.

تأمرها النجمة أن تخبر زميلتها الآن بخبر يصدمها ويحطمها، وهددتها بأنها، لو لم تفعل فسوف تطرد. فتضطر الفتاة أن

تفعل وهي لا تصدق تلك القسوة التي تندفع منها، وتتعذب وهي ترى الزميلة تنهار في البكاء.

ثم في أثناء حفل عالمي يتمنى حضوره الجميع، ترى سيدتها ذات المشاعر الخشبية في لحظة ضعف، دخلت عليها الغرفة وشاهدتها وقلبها ينفطر ولا تستطيع مقاومة البكاء والانهيار، باحت لها أنَّ زوجها الأخير، طلقها وسوف تنتشر الأخبار في كل الصحف، سيتداول الناس الأخبار بأنها عجزت ثانية وثالثة ورابعة عن الحفاظ على زوج ورعاية أولادها، أدركت الفتاة أن الأضواء والتربع على القمة كان ثمنه غاليا، شاهدتها تعيسة.

***

وفي السيارة وهم عائدون، أخبرتها النجمة الشهيرة: أنها ترى فيها وريثتها في المستقبل، وبهذا فهي مرشحة لتكون النجمة الأعلى، وهبطا من السيارة لتسبح النجمة الشهيرة في بحرها، وتختلط بالجمهور والكاميرات والصحافة، ثم تنظر ورءها فتجد الفتاة من بعيد ترحل، ونجت الفتاة من فخ الشقاء والعسل الذي يقع فيه كل الناس، أن يلقنوا أحلاما وطباعا وأخلاقا ومشاعر غريبة عنهم ولم تنبع منهم، وفازت بحبيبها ثانية وتزوجته واستردت أصدقاءها وهناء حياتها.

منْ منَّا السعيد الذي نَجا من هذا الفخ اللذيذ والشقي؟

***

يذكّرني هذا الفيلم بفيلم آخر يشتغل على الحكمة نفسها: تلقين الحلم.

في The Joneses تظهر عائلة كاملة بوجهٍ مشرق وسعادة متدفقة، لكنها ليست عائلة؛ بل معرض منتجات يمشي على قدمين. كل ما يلمع حولهم - الملابس، العطور، الأثاث، الطعام، السيارة - جزء من كتالوج متنقّل، صُمِّم ليجعل الجيران يصدّقون أن البضاعة هي سرّ الحياة الكاملة.

وهكذا تنجح الشركة في خلق أسرة مثالية تشعُّ ثراءً ودفئًا وحبًا رومانسيًا مفرطًا، حتى تصبح السعادة نفسها سلعة على شكل بشر.

تنتقل العدوى إلى المدينة: طفرة شرائية محمومة، اندفاع أعمى نحو «أدوات السعادة»، كمن يتناول حبوب الانتشاء ليشعر بوهجٍ زائف. ومع الوقت تظهر أولى الضحايا؛ رجلٌ استدان ليشتري الوهم، ثم سقط تحت ثقل الديون فانتحر. إنها جريمة باردة بلا قاتل ظاهر، خدعة لامعة لا تترك بصمات.

أما المفارقة الأكبر فتكمن داخل الأسرة المزيفة نفسها: الأب الذي مثّل السعادة بدأ يتوق إليها بحقّ. أحب دور العائلة حتى ظنّ أنه يملكه، وحين رأى جثة الضحية أدرك حجم الجريمة التي يشارك فيها. اعترف، وترك اللعبة، ثم عاد ليطلب من «زوجته» المزعومة أن تكون زوجته الحقيقية... ثم سألها السؤال الذي يكشف عمق الزيف القديم:

«ما اسمك؟»

فيلم يكشف كيف تُصنع الأحلام في مصانع الرأسمالية، وكيف تُطعَم لنا بمهارة حتى نركض وراءها مغمضي العينين.

إنه تذكير قاسٍ بأن أخطر الفِخاخ ليست تلك التي تُخيفنا، بل تلك التي تُعجبنا.

العد على الأصابع

حين نشاهد فيديوً لطلبة في غرفة الامتحانات، يستخدم الجميع الآلة الحاسبة الحديثة عدا طالب وحيد، يعد على أصابعه رغم وجود الآلة الحاسبة في حقيبته. وفي فيديو آخر، يقوم الجميع بالعد على أصابعهم عدا طالب واحد يستخدم الآلة الحاسبة.

الدهشة الأكبر من مشهد استخدام غالب الطلبة للأصابع، رغم توفر الوسائل الحديثة.

***

سُئل نجيب محفوظ عن سبب حبه للمشي دائمًا، فقال ببلاغة: «وهل هناك عاقل يترك المشي على قدمه ويمشي على عجلات؟» هذا الرد منطقي، فهو يفضّل المشي للحفاظ على صحته، وللتأمل وصيد الفكرة، لكنه حين يسافر يستخدم السيارة والطائرة.

حتى في قصر مترف، قد يجلس المرء مع رفيقته في ضوء الشموع، ولكن لا يُعقل أن يواصلوا حياتهم بلا مصابيح...

***

في المرحلة الابتدائية، وقفت في الطابور الصباحي وسط فرقة العزف الموسيقية، ممسكا بآلة تسمى «الجَلاجِل»، وهي صفائح معدنية على شكل كروي وبداخلها كرات هزازة تُصدر الرنين، ومثل هذه الكرات توضع حول رقبة الحمار ليحدث صوتا يسمعه الناس ويوسعوا له الطريق، ولهذا لم أكرر التجربة.

أراد زميل لي بالمدرسة المِزاح، فأخذ ينادي عليّ بلقب «جِلجِل»، وأخذ يرددها كثيرا أملا أن يلتقطها التلاميذ فيصبح لقبي الجديد، وكان هذا الخاطر يفزعني، فهناك من وقع في هذا الفخ وظل ينادَى بلقبه الذي التصق به، حتى نسينا اسمه الأصلي، وتحت تأثير الرعب الطفولي، تشاجرت معه ومع كل من ناداني بهذا اللقب، وجاء المدرس ليشهد هذا الصخب ويجدني في حالة هياج شديد، وكان مدرسا حكيما، فما كان منه إلا أن أمرني بالخروج من الفصل وخرج معي، وكان صديقا لأبي، فوقف بجانبي وقال لي: «لقد وقعت في حيلة مشهورة يا ابني، كلما زدت في غضبك كلما زادوا في إثارتك، أنت تخشى أن يلصق بك الإسم، أظهر لهم برود حين ينادي عليك أحد به، فقط لا ترد عليه ولا تبتسم أو تعبس، هذا الموقف السلبي سوف يجعلهم يتوقفوا، لأنك قطعت تسلسل اللعبة التي لعبوها عليك»

وقفت منصتا لكلام أستاذي وأنا مذهول ومندهش أن يكون الحل بهذه السهولة، ثم أدخلني الفصل، وبعد انتهاء الحصة واصل الأولاد الحيلة وأنا أنظر إليهم بوجه خشبي وكأني لا أسمع شيئا، حتى غلبهم اليأس مني وكفوا عن محاولتهم ثم نسوا كل شيء.

في هذه القصة أفادتني نصيحة الأستاذ وأفلحت في تطبيقها، فماذا لو غلبتني مشاعر الرعب والإهانة وفشلت في تطبيق النصيحة ووقعت في فخ التفاعل مع استفزازهم؟. فسأظل نفسيا وعاطفيا في مرحلة «العد على الأصبع».

***

حين تفكك الاتحاد السوفيتي، سارعت إيران لجذب العلماء الروس، خصوصًا في مجالات الذرة والصناعات الدقيقة، فتقدمت بسرعة نحو امتلاك أدوات القوة. وفي المقابل، امتلأت القنوات الفضائية العربية بالراقصات الروسيات وفرَق اللهو، حتى انتشرت النكتة: «إيران استوردت علماء روس، والعرب استوردوا عالِمات روس». فمصطلح عالِمَة في مصر، يطلق على الراقصة.

هنا تبدو إيران وكأنها تجاوزت مرحلة «العد على الأصابع»، والتقطت الفرصة التاريخية بوعي، بينما نحن العرب، نصر على قضم الأظافر والعدّ على الأصابع.

***

في الحرب العالمية الثانية، وبعد هزيمة اليابان، قبض الأمريكيون على علماء يابانيين كانوا يديرون معسكرات اعتقال في البلدان التي احتلتها اليابان. هناك، جرت تجارب لا أخلاق لها: تُحرق أعضاء الأسرى لدراسة حدود تحمّل الجسد، ويُحقنون بفيروسات فتاكة، ويُتركون في أوضاع صحية مهينة لاختبار وظائف الأعضاء تحت الانهيار، ويُعرَّضون لغبار كيماوي لمعرفة جرعات الموت وتدرّج أثره. كان الأسرى يتمنّون الموت ليضع حدًا لأوجاعهم... ولا يجدونه قريبًا.

أعلنت أمريكا محاكمة هؤلاء الوحوش، وكذلك النازيين، ثم جلست معهم إلى طاولة واحدة: أعطونا نتائج أبحاثكم، نعطِكم العفو. وهكذا تحوّل بعضهم إلى موظفين في المعامل الأمريكية، بينما مضى آخرون إلى حبال المشنقة. وروسيا وغيرها سارت في الطريق نفسه.

هذه القصة لا لمدح تصرفٍ ولا لذم آخر، بل لتذكير بسيط: العلم محايد؛ لا خير ولا شر فيه. لكنه حين يقع في يد الإنسان يتشكّل على صورته هو. والحكم القيمي، مهما بدا ضروريًا، لا ينبغي أن يمحو حقيقة أن الخبرة الإنسانية ـ حتى في أشد مساراتها انحرافًا ـ تحمل معرفة ما يمكن أن تُستخدم يومًا في دفع العلم خطوة إلى الأمام.

فالإنسان، كل إنسان، يحمل في داخله بذرة معرفة... والكل، كلٌ بطريقته، يحاول تجاوز مرحلة «العد على الأصابع».

***

في السينما المصرية، منذ نشأتها وحتى اليوم، ظلّت مشكلة العجز عن الإنجاب تُقدَّم في الصورة ذاتها: زوجان يشتعلان شوقًا إلى طفل «من صُلبهم»، يصبران أو يفترقان، وقد تتحمل الزوجة المسكينة عمليات جراحية متتالية بصبر عجيب، ثم تدور القصة كلها حول الهجر والوفاء والقدَر. لم تُقدّم لنا الدراما - سينمائيًا أو روائيًا - أي حل خارج هذا القالب الواحد، وكأن العقل الجمعي لا يعرف إلا التفكير داخل «صندوق العدّ على الأصابع».

بهذه القصص كرّست السينما شعور النقص لدى من لا ينجب، مع أن الإيمان يُعلّمنا أن أقدار الله لا تُنقص من قدر الإنسان. والأسوأ أن خيارًا إنسانيًا مثل التبنّي (من دون نسب) يكاد يغيب تمامًا، رغم أنه قادر على منح الزوجين حياة أسرية كاملة، ومنح طفل يتيم دفئًا وبيتًا وسقفًا وحنانًا.

في الغرب يكون الإنجاب قرارًا، قد يختاره الزوجان، وقد يعدلان عنه ويلجآن للتبنّي، فيملآن حياتهما معنى، ويُنقذان

طفلًا بلا أسرة. لو فكرنا بهذه المرونة لفرغت شوارعنا من اليتامى وامتلأت بيوتنا بالبهجة. لكن خيالنا فقير، محبوس في قوالب قديمة، نعيد اجترارها كما كان يفعل الناس قبل ألف سنة، لا نغيّر ولا نتطور.

وهكذا تظل بيوت بلا أطفال، وتظل الشوارع مكدّسة بالأيتام، فقط لأن جمودًا ذهنيًا يقول: «الولد يجب أن يكون من الصلب، وإلا فلا». هذا الجمود - وليس القدَر - هو ما يبقينا في مرحلة «العدّ على الأصابع»، نفكر بالطريقة نفسها، ونعيد إنتاج العالم نفسه، ولا نخطو خطوة واحدة إلى الأمام.

***

في بلادنا، نادرٌ أن يخطر ببال فردٍ من ملايين الأفراد فكرة جديدة، حتى لو كانت جنونية. نحن شعب يخشى التجربة، ويخاف من السلطة والمجتمع والغد والماضي، فلا يتمنى إلا الستر؛ ولو كان عشاءه تبنًا. أخلاق الفقر تفيض على الغني والفقير، وأخلاق الجهل تُغرق الأمي والمثقف، وأخلاق الهزيمة تُظلّل المتدين واللاديني، حتى صرنا أحياء بلا حلم.

ولهذا نحني رقابنا منذ زمن طويل، كأننا ما زلنا نحسب خطواتنا على أطراف الأصابع.

قد نكون على قيد الحياة، نعم، لكننا لسنا على قيد الحلم... ولسنا على قيد الأمل.

***

عند التقدم لوظيفة نعرض السيرة المهنية الذاتية، تشمل الخبرات التي نالها المتقدم، وكلما كثرت هذه الخبرات عددا

وعمقا كلما كان مرشحا لمنصب أكبر ومسؤوليات أخطر، هذا بديهي بين البشر وعند العرب إلا في حالة واحدة، تكون الخبرة سيئة السمعة، حين يتقدم الرجل لنيل عروس في بلادنا، فنحن لا ننظر للحياة والتجارب الماضية للمرأة كخبرة سوف تكون في صالح الحياة الزوجية، ولكن ننظر للمرأة كورقة مستهلكة بتوالي الكتابة عليها.

هناك مصطلح فارغ ويقدسه العرب وهو (ذاكرة الجسد)، فالعربي يتوهم أنَّ المرأة التي خاضت تجربة سابقة وطلقت أو ترملت، تصبح كورقة منقوش عليها لغة قديمة غير قابلة للمسح، نقش سوف يُزاحم الحياة الجديدة لو شاركها فيها رجل آخر، يتخيل أنَّ هناك مقارنة سوف تنطلق مع كل معاملة بين الرجل والمرأة في الحياة الجديدة، فالمطلقة أو الأرملة سوف تقارن بذاكرتها الجسدية بين زوجها الأول والزوج الثاني، وهذا جهل واختزال.

فلو كان للمرأة ذاكرة فسوف يكون أيضا للرجل ذاكرة.. فكلاهما بني آدم.. فكيف نهتم فقط بما نسميه الذاكرة الجسدية للمرأة وننفيها أو نتجاهلها في الرجل، ثم نتساهل معه في الزواج مرة وعشرة بسلام؟

وعلاوة على ذلك ألا توجد أنواع أخرى من الذاكرة؟

ذاكرة «الود والحب والقسوة والتخلي والهجر والقرب . إلخ» لماذا نتجاهلهم؟

الحياة بتجاربها خبرة.. والمرأة والرجل حين تتوقف أو تفشل التجربة الأولى، يكونوا أكثر هدوءا وحكمة وسهولة في الحياة وحرصا على النجاح مع الارتباط الثاني.

لو كان عندنا حكمة وتدبر لكان سوق الزواج بين المطلقين والأرامل أكثر الأسواق رواجا، ولكن العقلية مازالت متجمدة وذكورية سواء عند الرجال والنساء.

نحن نحجب عن أنفسنا السعادة بأفكارنا المتوارثة، ولم نفهم بعد أن الإنسان دواء وأنس الإنسان، هذه هي فقط المعادلة، وليختر الإنسان دواءه وأنسه بلا تعقيدات، هي صحبة فلا نضيعها بتفاهات.

نحن نمسك بأدوات الألم بأيدينا ونغرسها في حياتنا بإصرار ولا أمل أن نرحم أنفسنا، ونكف عن «العد على الأصابع».

***

عقبات بلا جذور

في مجتمعٍ يعبد الشكل، يغدو الزواج طقسًا اجتماعيًا أكثر منه رابطة إنسانية. وفي ظل هذا الهوس، تنهزم العلاقات أمام شقّة... أو شائعة، لأننا بنينا الودَّ على الجدران لا على الأرواح، وشيدنا الزواج على المظاهر لا على المعاني؛ فكان طبيعيًا أن ينهار أول ما هبّت عليه ريح الواقع.

وهذه حكاية من آلاف الحكايات:

تزوّج شاب وفتاة وفق الطقوس المألوفة: شبكة، دباديب، نيش، فرح، شقّة... ثم اكتمل الزفاف، لكن سرعان ما تبدّلت الأحوال؛ استدان الشاب، فقد وظيفته، خسر الشقّة، باعا الأثاث، وعاد كلٌّ منهما إلى بيت أهله.

عاد الزواج طفلًا في مهدِه الأول: مكتملٌ شرعًا، لكنه ما زال يتعثّر قبل أن يتعلّم المشي في حياةٍ لم تُفرش له طريقها بعد. مضت سنوات، لم يبقَ بينهما إلا رابط العقد: لا سكن يجمعهما، ولا ولد يشدّهما، ولا أمل قريب يواسيهما.

ومع ذلك، يظلان زوجين شرعًا؛ يلتقيان، يخرجان، ويكافحان لاستعادة ما فقداه.

فهل في هذا الوضع حرج ديني؟ قطعًا لا.

ولكن هل يتسامح معهم المجتمع؟ قطعًا لا.

كل لقاء بينهما هدفٌ لسهام الإنكار وتمتمة الشفاة وثرثرة الفضوليين، وكأن الزواج - في نظر الناس - لا يكتمل إلا بالأثاث والمكان والولد، لا بالميثاق الذي أبرمه القلبان يوم ارتبطا.

ماذا لو تخيّلنا شابًا وفتاة، يجلسان أمام أهلٍ يبتسمون بصدقٍ لا يعرف زينة الاحتفالات، وكأن دفءَ موافقتهم يكفي ليكون أوّل لبنة في بيتٍ لم يُبنَ بعد؟

فيقرّران أن يفتتحا زواجهما من النقطة التي يعود إليها كل شيء حين يُجرَّد من الضوضاء:

عقدٌ تُكتب كلماته على مهل، وشاهدان يحفظان اللحظة، وروحان تقتربان من بعضهما كما يقترب الغصنان في ريحٍ هادئة... لا استعجال، ولا خوف، ولا سباق مع الشائع.

يمدّان خطواتهما على طريقٍ لم يُمهَّد لهما بعد، مؤمنين بأن العلاقة التي تبدأ صغيرةً وصادقة، هي أقدر على الصمود من علاقة تُدشّنها المظاهر ثم تُترك وحيدةً تواجه الحقيقة.

لكنّ المجتمع - بحدّته الموروثة - لا يفهم النهايات الهادئة ولا البدايات المتواضعة؛ فيصعد صوته فوق صوت القلب:

"هي بنتنا سايبة!"

"وماذا لو طلّقها؟!"

"أكيد زواج للجسد، لا أكثر!"

كأن الذين جمعوا الذهب والأثاث والزينات قد أغلقوا على أنفسهم باب الفراق، وكأن الطلاق لا يدخل إلا حيث يقلّ البريق... مع أنّ الرحيل يحدث حيث تُهزم القلوب وكأن الاحتياج العاطفي - بكل رِقّته - عيب، بينما الاحتياج إلى المظاهر فضيلة.

ومن أعجب ما في الأمر أن البساطة - بصفائها - تُتَّهم دائمًا بأنها نقص، وأن الصدق - بعفويته - يُلاحق بالشبهات، بينما

يحظى اللمعان المصطنع بتهليل الناس فقط لأنه يشبه ما اعتادوا رؤيته.

كم هو موجع أن تُدان القلوب لأنها اختارت أن تنمو بعيدًا عن التصفيق، وأن تُحمَّل النوايا النقية بما لم ترتكبه، لمجرّد أنّها لم ترتدِ درعًا من المظاهر.

وكم هو قاسٍ أن يصبح الطريق الصحيح موحشًا فقط لأن المجتمع اعتاد السير في الطريق الأسهل... لا الأصدق.

***

لنتخيل طرحًا أكثر واقعية:

رجل أو امرأة قد خاضا تجربة زواج سابقة، أو حال دون زواجهما مسؤوليات ثقيلة تثقل كاهلهما.

ألا يكون الزواج المؤقت أو الجزئي، حين يُبنى على التفاهم والمودة، حلاً إنسانيًا؟

أليس وجود رفيق يخفف الوحدة ويبدّد فراغ الروح نوعًا من الشفاء؟

وهل تُعتبر الحاجات العاطفية والجسدية ضعفًا يُخجل منه، أم هي جزء من طبيعة الإنسان التي فطرت فيه؟

***

صديقي الأرمل يعيش وحيدًا بعد أن تزوّج أبناؤه وابتعدوا.

في الطابق العلوي، تسكن أرملة كانت صديقة زوجته، ومعها ابنتها المخطوبة منذ سنوات، وخطبتها على وشك الانهيار.

اقترحت عليه:

«تتزوجان، وتُخلي الأم الشقة لابنتها، وتحلان مشكلتين معًا.»

لكن العقبات تراكمت كجدار لا يُرى:
الأبناء: كيف سيتقبلون قرار والديهم بالارتباط مجددًا؟
الشقة: ملك الأرملة، فهل يُسمح لـ"غريب" أن يسكن فيها؟
الناس: الهمس والتساؤل: «هل جنّ العجوزان؟» و«أين وفاء الذكرى؟».
فتجمّدت الفكرة، وانفصلت الابنة عن خطيبها، وبقي الأرمل مع وحدته، يواجه الشيخوخة بصمت.. لأنه لم يقاوم وهزم بجولة واحدة... ولو كان قويا لأصر على أن يغير الوضع ويأنس برفيقته.

***

عندما فرضت الصين سياسة «الطفل الواحد»، فضلت كثير من الأسر الذكور، فكثرت عمليات الإجهاض، فغابت الإناث قبل أن يُكتب لهنّ الميلاد، وارتبك التوازن بين الجنسين.
ومع تحسّن الرعاية الصحية وامتداد الأعمار، راحت الصين تقترب من أزمة اليابان، حيث يزداد الشيوخ ويندر الشباب.
فأصدرت الحكومة قرارات متتابعة تسمح بطفلين ثم ثلاثة، لتكتشف أن كبح الرغبة في الإنجاب كان أسهل بكثير من تحفيزها.
فالأسرة الصغيرة أصبحت النموذج المثالي في الوعي العام، والشباب لم يعودوا يرون في كثرة الأبناء فخرًا أو ضمانًا للمستقبل، بل عبئًا يُثقل الروح قبل الجيب، وكيف نقنع جيل الابن الواحد بأهمية الأخ والعم والخالة، فمن لم يذق لا يعرف.
وفي اليابان، نتيجة عمل الرجل والمرأة، ظهرت ظاهرة «الزواج المنفصل»؛ زواج على الورق، لكنه في الواقع مسافةٌ

من العزلة المريحة، يعيش فيه الزوجان في بيتين منفصلين، يلتقيان على فترات قصيرة، أو يكتفيان بالاتصال عبر الهاتف.

وأحيانًا يتفقان منذ البداية على هذا النمط الغريب، حفاظًا على استقلال كلٍّ منهما أو هربًا من ثقل العِشرة اليومية.

إنها أمثلة آسيوية تذكّرنا بأنّ المجتمعات لا تتغيّر دفعة واحدة، بل ببطءٍ يشبه نموّ الأشجار، وأنّ القيم لا تنهار فجأة، بل تتحوّل في صمت.

ومن هنا نفهم أن تغيير الأعراف ليس أمرًا إداريًا ولا خطابًا أخلاقيًا، بل معركة طويلة بين الموروث والواقع.

ولذلك سيكون الأمر في مجتمعاتنا العربية أشدّ تعقيدًا؛ فالعادات لدينا ضاربة الجذور، متشابكة بمعتقداتٍ دينيةٍ متوهَّمة، متحالفةٍ مع الخوف من التغيير، ولهذا تتضاعف العقبات.

***

نحن مجتمع يسجن قراراته بعوامل لا عقل فيها: الطمع في شقة، كلام الناس، الخجل من الاحتياجات الإنسانية، واعتبار الضعف عورة.

الشرع واضح: رجل وامرأة يمكنهما الزواج بشرط العقد والشهود، لا أكثر. لا مسكن، لا شكل اجتماعي، لا تقليد يجب الالتزام به. لكننا نحن من نخترع العقبات، ونقدس الأعراف، ونعوق الحلال، ونراقب الحائرين فيه، حتى نحرم أنفسنا السكينة خوفًا من نظرة الآخرين. وهكذا تتكرر القصة: مصريًا، وعربيًا، وإنسانيًا.

الحلال لا يُحرَج، والشجاعة الحقيقية ليست في الامتثال لآراء الناس، بل في العيش وفق الحق، حتى لو كان قاسيًا على الأعين.

ومع صعوبة الزواج الحلال اليوم، ماذا نتوقع من الغد؟ الكبت يجد دومًا طريقه، وإن خرج في الظلام، خرج خبيثًا: تنتشر الخيانات، تنتهك الحرمات، وتفسد الأخلاق والعلاقات. أما لو فتحت أمامه مسارات واضحة وشجاعة في الحلال، لكان المجتمع أكثر أمنًا وسلامة.

كلما ترددت النخبة في مواجهة هذه العقبات الوهمية، ازداد المجتمع اختناقًا. المجتمع الحي هو الذي يتحدى العادات الظالمة ويجدد نفسه لصالح سعادة الإنسان، وليس المجتمع الذي يبرر القيود باسم الفضيلة، بينما يقتل الحرية والسكينة تحت شعارات فارغة.

***

الحوار البناء

لا أؤمن بمصطلحات أو جمل مثل «الحوار البناء والهدام» و«النقد البناء والهدام»، أراها طرحت بغرض تبرير فشل الحوار أو رفض النقد، فالحوار هو الحوار والنقد هو النقد وفقط، وكلاهما لا يواجه إلا بنظيره، فالحوار والنقد يواجه كلاهما بما يقابلهما من الحوار والنقد.

الحوار لا يدور فقط بغرض الوصول إلى برهان عقلي أو منطقي ، هناك وظائف أخرى للحوار، وأقوى مثال على ذلك الحوار الذي يدور بين المريض والطبيب النفسي، حوار للتفتيش عن ما وراء الألم والتنفيث عما يتجمع في الداخل من كلمات وعقد وصور تنغص على الإنسان في أعماقه.

ماكينة الإنسان الروحية تدور من وراء الوعي بأفكار وتصورات لا تتوقف، ولهذا كان الحوار وسيلة هامة لإخراجهما للنور والهواء، كثيرا ما تصبح الأفكار والتصورات مثل تجمعات الغازات الفاسدة داخل الأمعاء، أو كالدم الفاسد الذي لا بد من أن يغادر الجسد، وهذا يعني أن كثيرا من الأفكار والتصورات لا تحتاج أدوات المنطق وإنما التنفيث والتعبير باللسان، وإن لم يحدث هذا سوف تتجمع داخل سراديب النفس وتؤذيه.

لهذا ينصح العلماء بأن يحاور الأب أولاده بلا نهاية، حوار وفقط، لا ضرب ولا قهر ولا ذم أو توبيخ، حوار بلا أسلحة معنوية، حوار بأدوات السلم والأمان، وبمجرد دوران هذا النشاط يكون الشفاء والتغيير الذان يحصلان نتيجة للتغيير البطيء والخفي الذي يحدث أثناء الحوار وبمرور الأيام.

كثيرا ما يتكوم بين شخصين جبال من الظنون والمشاعر دون أن يتصارحا، ويبيت كل منهما نية سيئة للآخر، ولا سبيل لتوقف هذه المشاعر عن النمو سوى الحوار والمصارحة، وسوف يفاجأ الإثنان أنهما أقاما بناءً من المشاعر والظنون الباطلة دون أساس، والسر وراء ذلك عدم الحوار، يجب أن يدور الحوار وفي الوجوه فم مبتسم وعين صادقة ونفس متسامحة، كل هذا ينطق أثناء الحوار فينجح ويذوب الجليد بين المتحاورين.

في مقدمة كتاب «كابوس مكيف الهواء»، بعد أن أدرك الكاتب الأمريكي «هنري ميلر»، أنَّ صوته الداعي للسلام ضعيف، بينما صوت الشعارات الحماسية التي سبقت الحرب العالمية الثانية يملأ الدنيا صخبا، قال :«لكي يعرف الإنسان السلام يجب أن يجرب الصراع، وعليه أن يمر بالمرحلة البطولية قبل أن يتمكن من التصرف كحكيم، يجب أن يصبح ضحية انفعالاته قبل أن يتمكن من التعالى عليها».

في هذه المقدمة تقرير لواقع متكرر، أنَّ الإنسان يستطيع أن يوفر على نفسه الصراع والدماء والمشاعر السيئة والسنوات الضائعة، لو لجأ للحوار، ولكنه دائما لا يخضع للحوار والعقل إلا بعد أن يندم ويدفع أثمانا فادحة، لا يمكن تعويضها.

من يدرس التاريخ يدرك أنَّ ضحايا الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت عشرات الملايين من البشر، حتى كاد الإنسان الأوربي أن ينقرض، فهناك شعوب فقدت ثلثي السكان وأخرى فقدت نصف السكان، وفي النهاية توصلوا إلى أن الحوار هو الحل، فتحاوروا متأخرا وتوصلوا لأدوات ووسائل ينتشر بها التسامح والمواطنة. وينطبق نفس الأمر على الخلاف بين السنة

والشيعة، وبين مختلف الفرق والمذاهب في الأرض، غاص الجميع عبر التاريخ وحتى اليوم، في بحور من الدماء قبل أن يذعنوا للجلوس على المائدة للحوار.

الشركات الصناعية الكبرى لا تتوقف عن عملية التحسين، فهناك دائما مطاردة للجودة، وبهذه الطريقة تطورت المخترعات من الصورة الأولى الساذجة إلى ما هي عليه اليوم وما ستكون عليه غدا، ولو توقفت شركة عن هذه العملية لسبقتها الشركات الأخرى، وبالبحث البسيط في جوجل نستطيع رؤية السيارة «كمثال» في أول أختراعها ثم ما خضعت له من سلسلة التطورات والتحسينات حتى وصلت للسيارة التي نركبها اليوم.

الإنسان هو الأولى بالاهتمام في هذه الدنيا، فهو بناء الله، وهو خليفته في الأرض، وقد كان في بداية حياته على الأرض يبتدع تحسينات تفرضها ضروريات الوجود، ولكن حين تمكن الإنسان من بناء البيت وتدبير الآلات التي تحفظ حياته، أصبح التطور في حياته بطيئا جدا، ولو كان التحسين يلقى نفس الأهمية التي تنالها المخترعات والآلات لكان إنسان اليوم أسعد

لا توجد وسيلة للتحسين أفضل من الحوار البناء، باستعراض الواقع ونقده ثم الخروج بما يقلل من العيوب ويزيد في المميزات، ولكن ما يعرقل ويفسد ويمنع الحوار هو ما وراء النفوس التي تتحاور، فالانحياز والمصلحة والمشاعر السيئة تفسد كل حوار وتطرد أي منطق، وهذا هو سر ما فينا من شقاق وتخلف.

من القصص الطريفة والمفيدة التي قرأتها: «قام أحد الأدباء الظرفاء الأوربيون بنشر نقد لأحد اللوردات من ذوي النفوذ،

فما كان من اللورد إلا أن ذهب إليه غاضبا. قال اللورد : «لقد أهنتني ولا بد من مبارزتك، فأختر السلاح». قال الأديب بهدوء: «لا بأس، أبارزك بنفس السلاح الذي تظن أنني اهنتك به، الكلمة» ابتسم اللورد لهذه الإجابة وتم الصلح.

النقد يقابله نقد، الكلمة تقابلها كلمة، لكن الكلمة التي تقابلها مسدس، لا تسمى حوارا بل قهرا وجهلا وتخلفا ويخسر الجميع. هذا هو الإنسان الذي يستسهل الدماء ويستثقل الحوار، بالحوار تسع الدنيا الناس ويسعد الجميع، ولم يعد عندنا اليوم رفاهية تجنب الحوار، فقد بلغت المجتمعات الرشد ولا سبيل سوى أن يتحاوروا.

***

الفتح

في سنوات الشباب الأولى، أحببت كتب السلوك والترقّي الإيماني، وكانت مؤلفات الغزالي وابن القيم تمنحني نشوةً روحيةً عميقة، بما تسكبه في قلبي من معانٍ إيمانية شافية.

أذكر أنني كنت دائمًا أدعو قائلًا: «اللهم افتح لي، وافتح عليّ».

أكثرتُ من الإلحاح في الدعاء.

كان ذلك مصحوبًا بالصلوات والصيام والتفكّر ومحاولات لاستدعاء الخشوع.

ومع ذلك، طال الوقت ولم أحس بشعور الفتح المنتظر.

ظل شعوري بوجود حاجز وانغلاق ملازمًا لي، وكان مصدر إحباط دائم.

ثم قرأت قصة «رابعة العدوية» التي أدهشتني بمعناها العميق:

كان أحد شيوخ الصوفية يكثر من وعظ الناس قائلًا: (افعلوا كذا، وقولوا كذا، واجتنبوا كذا، وسوف يُفتح لكم)، ويتخلل وعظه دائمًا جملة: (وسوف يُفتح لكم).

فقالت رابعة له: «لقد أكثرتَ وأخطأتَ بجعل الفتح في زمن المستقبل، لأنك ترى الباب مغلقًا، وكذلك يراه من تعظهم، والباب لم يُغلق أبدًا، ولكنكم أنتم المنغلقون والمعرضون عنه»

أدهشني هذا المعنى الحكيم والمؤمن العارف:

أن نتمنى أن تُفتح الأبواب التي نتوهم انغلاقها، بينما هي مفتوحة على مصراعيها.

هناك غشاوة تمنع الرؤية، وهي نتاج ضعف إيماننا، وثمار عبادتنا الجاهلة أو القليلة.

فالجهل لذيذ، والعمى مريح، لكنهما يحجبان نور الحقيقة عن القلب.

الشعور بالله لا يحتاج إلى تكلّف، لأنه إدراك للواقع.

من يشتاق إلى شخص يحاول تخيّله في غيبته، لكن الإحساس بالله ليس مجرد تقريب لبعيد، ولا تجسيد لوهم. إنه إدراك للواقع المحيط بنا، لأن الألوهية لا تفارق العبد لحظة.

الأعمى يعجز عن رؤية الأشياء، لكنها موجودة، أما ذهول الناس عن الله فهو نتيجة إغماض أبصارهم بإرادتهم، وليس عمى حقيقيًا. وهم مسؤولون عن هذا الذهول.

ما الذي جعل رابعة العدوية تعرف ما خفي عن كثير من الناس؟

التجربة المخلصة والإصرار على الوصول والقرب؛ فالعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا منحت نفسك كلك، وكذلك الحب والوصال والعرفان وأشواق الروح.

قال حكيم:

«المثقف الواعي يرى الآخرين مزوّدين بأجنحة وقدرات خارقة، بينما يرى فقراء الوعي أنفسهم مقيّدين، مقهورين، عاجزين، وضحايا لغياب الفهم».

الذي يمتلك علمًا ووعيًا يكتشف الأبواب المفتوحة والإمكانات الكامنة.

أما الذي لا يمتلك علمًا ووعيًا فيرى القيود والسدود والإظلام، ويشعر بالضعف واليأس.

الآية الكريمة:

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ - [ق: 22]

فـ "كشفنا عنك غطاءك" وليس "الغطاء"،

وكأن عين الوعي في الإنسان تحت غطاء، وكان عليه في حياته أن يحاول رفعه – ولو جزئيًا – ليرى بعض الأشياء،

ولكن بالوفاة، تخرج النفس، ومعها يُرفع الغطاء كاملًا، فيرى الإنسان الحقائق كاملة.

وفي الحياة، بقدر وعي الإنسان، وإيمانه، وعلمه، يرتفع الغطاء، ليفسح المجال للإبصار.

ولكل منا تجارب بشأن هذا الوعي والإبصار المتأخر.

عندما نرجع بالذاكرة إلى الوراء، نتذكر:

- ما صدر عنّا من قرارات وخيارات خاطئة، نُميّز خطأها بوضوح، وندرك القرارات الصحيحة التي كان ينبغي أن نختارها.
- أحداثٌ تفاعلنا معها، ولو عاد بنا الزمان، لكان تفاعلنا وردّ فعلنا مختلفًا وصحيحًا.
- أفكارٌ ناقصة أو ضالة اعتنقناها، واليوم نراها بحقيقتها، ونتبنّى أفكارًا أخرى صحيحة.

وبهذا، فالقرارات، والأحداث، والأفكار، لم تكن مغلقة، ولكن العقول هي التي كانت مغلقة، وانفتحت بمرور الأيام.

ولو حاول الإنسان النظر بحكمة، وعلم، ووعي، للأحداث في وقتها، وبذل الجهد فيها، لكان الفتح مبكرًا.

فالأبواب مفتوحة، والغطاء ملازم للإنسان، وعليه بذل الجهد والوعي لرفعه.

الصورة التي قد تقرب فكرة هذا الغطاء ما نعرفه من تعلّق المراهق بفتاة صارخة الجمال؛

فهو لا يرى سوى جمالها، ولا يلتفت إلى أيّ عيب يصدر عنها،

ودائمًا ما يبرّر هذه العيوب، لأنه يرى بعين العاشق،

وعين العشق تُغلق بقية العيون الأخرى، (وعين الرضا عن كل عيب كليلة وعين غير الرضا تبدي المساويا).

والجميع من حوله يحاول نصحه، ويُوضح له ما يرونه ويعرفونه من سوء خُلُقها وطباعها،

لكنه لا يستمع، ولا يقبل كشف غطائه.

وتمرّ الأيام، ويحترق بنارها،

ويرتفع الغطاء بعد فوات الأوان، وهو نادم وخاسر.

في هذا المشهد، كان الناس من حوله يرون ما لا يراه المراهق العاشق،

ووراء هذا العمى غلبةُ هوًى، وخيالٌ ضال، وتعامٍ عن عيوب صارخة.

وهذا حال أغلب الناس مع خياراتهم في الحياة؛

غطاء الهوى، والتحيّز، والمشاعر السيئة، والمخاوف الضالة، يُغطي وعيهم، فيختارون ثم يندمون.

باب الصواب مفتوح أمام أعينهم، لكنهم وضعوا عليه بأنفسهم أستارًا، فرأوه مغلقًا.

هذا بالضبط حال من يُطارد المال، والجاه، والسلطة،
وبقية الشهوات المادية والمعنوية؛
لا يرى سواها، فيتبعها كما يتبع الفراش ضوء النيران، ثم يحترق فيها.
وكل هذه الفِخاخ وقع فيها أغلب الناس،
وفي نهاية المغامرة يخرجون بمشاعر الندم، وحصيلة من الحكمة المتأخرة
التي رُفعت أستارها عنهم رغماً عنهم، بعد فوات الأوان.
فالإنسان لا يضلّ ولا يشقى بسبب عمًى خارجي،
بل يُغلق عين بصيرته بنفسه، ثم يضلّ ويشقى.

هناك مثل عامي يقول:

"كنت فين يا – لا – لما قلت نعم؟"

وهي جملة ندم بعد فوات الأوان، على قرار قديم بالموافقة، في حين كان الصواب في الرفض.
في هذه اللحظة التي ندم عليها، كان الغطاء الذي قاده للقبول ربما عبارة عن "مخاوف، مشاعر، أطماع، حسابات، معلومات" خاطئة،
وكان عليها وقتها، أن يفتش فيها، ويكشف زيفها وصوابها، حتى يرى الباب مفتوحًا، ومكتوبًا عليه: "لا توافق".
يدخل ملايين الطلاب الجامعة، يملؤهم الحماس والنشوة في بداية الطريق، كمن يخطو في غابة واسعة مزدانة بالضوء والوعود. تمر الأيام والسنون، ويبدأ الواقع يصفّي القلوب، فلا يبرز بين هذه الملايين سوى عشرات من الطلاب الممتازين،

القلة القليلة التي تصنع الفارق. فما الذي يميز هؤلاء عن آلاف الآخرين؟ ليس الحظ، ولا الصدفة العابرة، بل الرؤية الثابتة لباب العلم المفتوح، والإصرار على المضي قدمًا رغم اللهو والانحرافات من حولهم، ورغم إغراء أبواب الضلال المفتوحة على جانبي الطريق. ومن هؤلاء العشرات، يبرز عالم واحد، يتفوق عليهم جميعا، يملأ تخصصه علمًا ونورًا، يصبح فخرًا وهداية للبشرية، وعلامة على قدرة الإنسان على الارتقاء فوق العادي.

هل يمكن وصف هؤلاء الممتازين بأنهم محظوظون؟ لا. فالأبواب كانت مفتوحة أمام آلاف، وربما ملايين الطلاب، ولكن كلما أبعد الطالب نظره عن الهدف وانشغل بأبواب أخرى، شعر بضيق الباب وانغلاقه، حتى تسدل عليه الأستار المتتالية، وتحجب الفرص أمامه. أما الممتازون، فقد حافظوا على تركيزهم على الباب، وكان الأكثر تميزًا بينهم أكثر إشراقًا وإصرارًا، كمن يعرف أن كل فرصة ضائعة ليست مجرد خسارة، بل تراجع في مصباح القدرات الداخلية.

وهنا تظهر القصة التي لا يعنيني قدر توثيقها، ولكن تجذبني عبرتها: عند تعيين الدكتور أحمد زويل – رحمه الله – رئيسًا لقسم في المعهد، اعترض أحد الأساتذة على التعيين، مدعيًا أحقية نفسه بالمنصب. لم ينشغل العميد بالخلفيات الشخصية أو المواقف العاطفية، بل عقد اجتماعًا عمليًا حضره زويل والمعترض، وجرى نقاش موضوعي حول جدارة كل منهما. انتهى الاجتماع إلى توافق الجميع على صواب القرار: أن يكون زويل هو الأنسب لرئاسة القسم.

في هذا المثال يتجلى سر تفوق المؤسسات العلمية الأمريكية: التركيز على الكفاءة والجدارة فقط. الجامعات هناك تضم علماء من كل أنحاء العالم، ولا تُمنح المناصب إلا لمن يمتلك المؤهلات الحقيقية والتفوق الفعلي. وزويل كان نادرًا، مثل رابعة العدوية في تميزها الروحي: فرابعة رأت الباب دائمًا مفتوحًا للتقوى والعبادة، وزويل رأى باب الاكتشاف مفتوحًا أمامه، لأنه من القلة الممتازة المتجردة للمهمة، صاحبة البصيرة والقدرة على الإنجاز. قاد فريقه بحكمة وبصيرة، وحقّق اكتشافاته التي نالت جائزة نوبل، وأصبح اسمه علامة في تاريخ العلم.

وهكذا، بين ملايين البشر، يبرز القليل النادر جدًا: نادر كالزويل، كالأنبياء، وكالعظماء من الفيزيائيين مثل أينشتاين ونيوتن. التميز ليس صدفة، بل رؤية مستمرة، ومؤهلات فريدة، وعزيمة لا تلين، وإرادة ترفض التراجع، وهي الصفات التي تجعل القلة القادرة على صنع الفارق، القلة التي تملأ العالم علمًا ونورًا، وتترك أثرًا خالدًا في البشرية.

هؤلاء الممتازون يعرفون الباب المفتوح حين يرونه، ويجرؤون على عبوره، بينما يغفل عنه الآخرون فلا يرون سوى الجدران. ومن هذا الباب، يخرج العلم والقدوة والخير والإنجاز، ليكون درسًا خالدًا لكل من يسعى لأن يكون أكثر من مجرد رقم أو اسم، بل إنسانًا يضيء الطريق للآخرين ويصنع أثرًا يمتد عبر الزمن.

كل الأبواب كانت مفتوحة دومًا: الإيمان، والعلم، والحرية، والعدل، والإنجاز... الفرج، والتغيير، والرحمة، والإصلاح.

لكن العيون كانت مغلقة، والأفهام موصدة، والنفوس مظلمة.

من أراد أن يرى، فالباب مفتوح.
من أراد أن يغير، فالباب مفتوح.
من أراد الخير، فالباب مفتوح.
فتح العين، وامتداد اليد، وبصيرة القلب... كل ذلك كافٍ لتفتح أمامك أبواب الحياة، كما يقول المثل:
"فتح عينك تأكل ملبن."

***

طَعم الحياة على الشفاه

في عالم الأسماك ما تزال الخديعة ذاتها تعمل بفعاليّة؛ طُعمٌ ضئيل يبتلع سمكةً ضخمة.

وفي عالم الحيوان، لا تزال قطعةُ جبن صغيرة تقود فأرًا إلى مصيدته، فلم تتعلم تلك المخلوقات يومًا أن تتجاوز مكائد الصيّاد، إذ هي أسيرةُ غريزتها، تمشي إليها طائعةً بلا وعيٍ ولا حذر.

غير أن الأعجب من كل ذلك أن الإنسان ـ الكائن الذي وُهِب العقل ـ لا يزال يُقتنَص بالطُّعم نفسه.

فحكايات الإنسان الأول تتكرّر في حياة الإنسان الحديث؛ الغريزة لم تُهذَّب، والخبرة لم تُورَّث، وحِيَل الصيد الأولى التي ابتدعتها يداه ما تزال قادرةً على إسقاطه بسهولةٍ مدهشة. فالمال، والشهوة، والسلطة، والمنافسة، والمشاعر المظلمة...

كلها لا تزال تُطيح بالناس كما كانت تفعل منذ فجر التاريخ.

فلماذا لم يتعلّم الإنسان من آثار من قبله؟

ولماذا لم تتراكم الحكمة كما تراكمت الأدوات؟

وكيف ما نزال نقع تحت ما حذّرت منه الملائكة قديمًا:

«يُفسد فيها ويسفك الدماء»؟

لقد ارتقى الإنسان في كل ما سهّل ظاهر الحياة:

طعامٌ أكثر وأجود، وملبسٌ أيسر، وأدواتٌ أعقد، وعلومٌ أوسع؛ ومع ذلك ظلّ يزحف أمام قوى الغريزة، ويُساق إلى مصائد الدنيا بلا مقاومةٍ تُذكَر.

حتى إذا جاءه الرحيلُ جزِع،
وكأنه يُنتزَع من مائدةٍ لم يشبع منها بعد...
مع أن النِّعَم الحقيقية كانت أمامه، لكنّ عينه انشغلت بما لا ينفع، فغادرها مُرغمًا، وما ذاق منها إلا الفتات، وترك الطيّباتِ خلفه جائعًا إليها.

***

قال حكيم:
«الذئبُ إذا صارع ذئبًا وقتله لا يُمثِّل بجثّته؛ لأنه لا يريد أن تُروى عنه قصة... لكنّ الإنسان يفعل.»
فإلى أيِّ دركٍ هبط الإنسان، حتى بلغ محاكم التفتيش في الغرب، وخازوق الدولة العثمانية، ومسابقات سلخ الجلود، في أمريكا، التي تُمنح فيها الجائزة لمن يسلخ ضحيته كاملةً قبل أن تموت؟
إنّ تلك المبالغات في الإيذاء والتعذيب بلا حدود، لا تعرفها الحيوانات؛ تعرفها نفسٌ بشريةٌ تطلب أن تُحكى عنها رواية، «فالإنسان يطمح إلى ما فوق الإنسان، حتى ليخيّل إليه أنه يحاذي الإله في كبريائه...»
ويتردد اسمه عنوانا للمجد بين النجوم وفي التاريخ أناسٌ انغمسوا في نداءات الغريزة، فقتلوا أبناءهم، وطعنوا إخوتهم، وسلكوا دروب السلطة وقد ظنّوها مجدًا، فلم يبقَ لهم من الحياة إلا مرارة الندم، وذكرياتٌ تُطاردهم كلما أطبق الليل جناحيه.

***

فأيّ طعمٍ للحياة يبقى على شفاهنا؟

إنّ حاجة الإنسان للطعام غريزية ومؤقتة؛ فالذي لبى نداء معدته وملأها عبر عشرات السنين، يظلّ معرّضًا للجوع الشديد إن مُنع عنه ساعات قليلة، وقد ينظر بحسدٍ إلى من يأكل أمامه، ولا تكبح هذا الحسدَ كلُّ الوجبات اللذيذة التي استمتع بها عبر السنين.

وهكذا يكون طعم الحياة على شفاه الغافلين؛ هؤلاء الذين لم يُتقنوا فنّ العيش، والذين سقطوا في فخاخها، والذين عجزوا عن الإفلات من القوة الطاردة المركزية التي تشدّهم إلى المألوف والموروث والعادة.

فينظرون إلى الشباب بحسد، وإلى الأصحّاء بحسد، وإلى الأعمار التي انقضت بحسرة؛ وكأن حياتهم كانت وجباتٍ عابرة فرغت بطونهم منها قبل أن تشبع أرواحهم، ويريدون أن يملؤوها من جديد...

لأن الحياة خدعتهم، أو لأنهم هم من خدعوا أنفسهم فيها.

***

لكن هناك مثالًا آخر على طعم الحياة.

هل ينظر طلاب السنة النهائية إلى طلاب السنة الأولى بحسد؟

هل ينظر صاحب الدكتوراه إلى حديثي التخرج بحنين؟

هل من قطع شوطًا كبيرًا في السباق يعود مشتاقًا إلى نقطة البداية؟

الجواب: لا.

الذي تقدّم يشعر بالإنجاز، ويرى نفسه قدوة لمن يسيرون خلفه.

***

في مدينة الألعاب، تقف مجموعة من الناس، وظهرها للجدار الداخلي لأسطوانةٍ ضخمة، يشدّهم الحزام إلى مواضعهم بينما تدور الآلة بسرعةٍ متزايدة.

فإذا بلغت سرعة الدوران حدًّا معينًا، انفكت الأحزمة آليًا، ووجد اللاعبون أنفسهم ملتصقين بالجدار بقوةٍ لا يبذلون فيها جهدًا؛ إنها «القوة الطاردة المركزية» التي تتكفّل بإبقائهم في أماكنهم.

ثم تتباطأ الأسطوانة قليلًا، فتعود الأحزمة لتشدّهم رويدًا رويدًا، حتى تتوقّف الحركة كلّها.

وهكذا تفعل «القوة الطاردة المركزية للمجتمع»:

الأفكار، والعادات، والتعليم، والسلوك، والنفسية، والعاطفة...

كلّها تدور بالإنسان في مداراتٍ اختارها زمنَ السذاجة، ثم تشدّه إليها بقوّة، وتوهمه أنه أسير تلك الدوائر، وأنه لا يستطيع الفكاك منها...

مع أنه لو توقّف قليلًا، لاكتشف أنّ الأحزمة لم تكن يومًا أقوى من إرادته ووعيه.

***

حين يُستبدل لاعب كرة في منتصف المباراة، تتحدّد مشاعره بقدر ما قدّم في الملعب؛ فإن كان قد سجّل أهدافه، خرج راضيًا مبتسمًا، وإن كان مرتبكًا متخاذلًا، غادر وهو يطوي في صدره الغضب والحسرة.

وهكذا شأن الإنسان حين يستشعر اقتراب رحيله؛ ينظر إلى المباريات التي خاضها في عمره، فإن أصابه الجزع والندم، فمصدرهما ضآلة الإنجاز، وإن غمره الرضا والسلام، فمن رضاه عن عمله.

ونحن نعلم أن أهل الرضا قليلون.

***

لاعبُ السيرك الذي يُدهش الجمهور بدقائق من المهارة، لم يصل إلى تلك البراعة إلا بعد سنواتٍ طويلة من التدريب الشاق.

والمغرور وحده هو من يتوهّم أنه سيهبط إلى ميدان الحياة ليجتاز حبالها المشدودة بلا ثمن.

والواقع يخبرنا أن أكثر الناس يفعلون ذلك؛ فالطفل والصبي والفتاة يلتقطون كتالوج الحياة من المجتمع، فإن كان المجتمع أمينًا حكيمًا سعدوا، وإن كان جاهلًا مُشوَّشًا - ضلّوا وشقوا.

والمجتمع الذي يلقّن أبناءه:

«عين الحسود فيها عود»، و«الأقارب عقارب»، و«الدكتور لا يتزوج إلا دكتورة»...

هو مجتمع يسكب في عقولهم جهلًا مركّبًا، فنصائح كهذه فقدت صلاحيتها، وحلّ محلّها علمُ الإنسان وتجاربُه الواسعة.

ولذلك بات واجبًا أن نُنقّي وصايا المجتمع قبل أن نسكبها في وعي أبنائنا، لئلا نكون نحن السبب الأول في شقائهم، وفي خروجهم من الحياة بلا أثر... وبلا إنجاز.

الحياةُ رحلةٌ ذات محطّاتٍ ومنعطفات، وفي يدِ المسافر دليلُ رحلته:

يعرف المسافة، والبلاد التي يمرّ بها، ومواضع الاستراحات، وبذلك يأمنُ الضياع ويقترب بالتدريج من غايته.

لكنّ بعضهم يغفل ويظنّ أن بلدة العبور مستقرّه، أو تغرّيه رفاهيةُ استراحةٍ فيخلد إليها، أو تسحره فتاةٌ في الطريق فيقعد

حيث لا ينبغي له أن يقعد، فلا بدّ أن يستيقظ يومًا على ندمٍ شديد؛ لأنه قطع رحلته وتعجّل متعةً قليلة، فنشأ في قلبه شعورٌ «الفوت» وغيابُ الإنجاز.

***

وزّع المدرس أربعين بالونة على أربعين تلميذًا، وطلب إليهم أن ينفخوها ويكتبوا أسماءهم عليها.

ثم جمع البالونات كلّها في غرفةٍ صغيرة، وأمرهم أن يعثر كلٌّ منهم على بالونته خلال خمس دقائق، فانتهى الوقت وغمرتهم الفوضى ولم يجد أحد ضالّته،

ثم قال لهم بهدوء:

«خذوا أيَّ بالون تقع عليه أيديكم، وابحثوا عن صاحبه، وقدّموه له».

فلم تمضِ دقائق حتى عاد كل تلميذ بابتسامةٍ عريضة، وقد وجد بالونته بين يدي الآخرين.

عندئذ قال المدرس: «هذه البالونات تشبه سعادتنا؛

فحين نركض خلفها لأنفسنا نضلّ الطريق، وحين نحملها للآخرين تعود إلينا أسرع مما نتوقع».

هذه هي الحيلة التي يقع فيها الإنسان دائمًا: يفكر بغرائزه، ويستعجل القبض على السعادة، ولو تعاون الناس بنية الخير والحكمة، لكانت حياتهم يسيرة بسيطة كما فعل التلاميذ بالبالونات.

***

وفي المؤسسات تدريب دوري على إنذار الحريق؛ فإذا دوّى الجرس خرج الجميع في انتظام.

ولولا التدريب لكانت ضحايا التدافع أكثر من ضحايا الحريق. فالإنسان لا يُترك لردود الفعل الغريزية؛ بل يُدرّب على الحكمة، كما حدث في درس البالونات، وكما يحدث في تدريبات الإخلاء، ومثال ذلك الوقوف في الطابور.

فالمجتمع الذي تعلّم احترام النظام يسير أفراده بانتظام تلقائي، ولا يعتدي أحد على دور الآخر.

أما المجتمع العشوائي الغريزي، فتكثر فيه الفوضى والتدافع والاعتداء والظلم... وتُهدَر الشفافية، ويضيع الحق.

***

«مصر... مسرح كبير»

يدهشني إدمان المصريين للفصال والمساومة، يرفع البائع السعر، ويبدأ الفصال، ثم يصل الأمر إلى أن يهمّ المشتري بالمغادرة، وبعد خطوتين ينادي عليه البائع ليعود ويتم فصال سريع ويتوصلا إلى سعر مُرضٍ. تمثيلية عبثية، وأسخف ما فيها السيولة! فالبيع والشراء يحتاجان إلى ثمن محدد: «هات وخذ». فلماذا هذه التمثيلية؟ ولماذا تستمر حتى اليوم؟

المساومة في البيع والشراء وعدم تحديد السعر للجميع فتحت ثغرة طمع بين البائع والمشتري، في هذه الثغرة تدور التمثيلية، ويضيع الجهد ويُستنزف الإنسان في عملية طمع ثنائي، وقد ينزلق للكذب، ويتعوّد كلاهما على المساومة في كل شيء، وتركيز النية على الكسب على حساب الآخر.

لهذا نستطيع القول إن على المجتمع أن يجعل معظم عمليات بيع وشراء السلع خاضعة لأسعار ثابتة لا تتغير، وهذا ضروري لعدم برمجة الناس على تمثيلية المساومة وما يتبعها من غرس صفات وعادات خبيثة في النفوس.

***

آخر إحصاء عن نسب الطلاق للزواج الحديث رقم كبير جدًا وصادم. والغريب أن كلمة «حديث» لا تعني أنهم بلا أولاد، بل لدى أكثرهم أولاد وبنات. فنحن حين نتزوج نتسرع بالإنجاب لظننا أنه سبب لتجنّب الطلاق وتعزيز نجاح الزواج. وينال كل من المرأة والرجل شهادة الخصوبة بهذا القرار، لا ننتبه إلى أنها قد تكون ورطة.

تخبرنا الإحصاءات أن أغلبها ينتظر قرار القاضي. يندر من يعالج مشكلة الانفصال بدون محامٍ وقاضٍ. وهما الرابحان، ففي كل خطوة فاتورة ورسوم. وكلٌ طرف يريد أن ينزع وَبَر الآخر أو يذلّه بالقانون المطاط، وكلاهما مسكين وضحية للحماقة ونسيان القاعدة القرآنية:

«وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا» [النساء: 35].

***

الحكم في قضايا الأسرة سهل ومعروف كل شروطه وظروفه، فلماذا يدخل كل زوجين عبر المحاكم وكأنهم في بيت حجا، متاهة بلا هداية ولا نهاية طريق، الكل يدخلها ويشقى؟ هذه تمثيلية مشؤومة، والسبب هو الثغرات القانونية والحيل الإجرائية والروتين. الدولة الصالحة تريح الناس في المنازعات، ولا تتركهم ضحية احتيال أو سمسرة، والمشاكل الأسرية ليست اختراعًا ولا شيئًا نادرًا، بل هي قديمة قِدَم الإنسان. فكيف نتعامل مع مشاكل كل أسرة وكأنها المشكلة الأولى على ظهر الأرض؟ وبديهي أن المشاكل التي تطول تترك مشاعر سيئة وتفتح أبوابًا للشر بلا حدود. والعصر الحالي متقدم ويسهل جمع البيانات والمعلومات بسهولة، فتحسم القضية خلال أيام أو أسابيع قليلة، وإن لم نفعل فنحن نتعمد إفساد العلاقات وشقاء الناس وسريان المشاعر السيئة بينهم.

هل عدمت العائلتان، أو القرية، أو المدينة (وكل هؤلاء «أهلهما») أن يجدا حكمًا رحيمًا عدلًا يوفق بينهما أو يحكم بينهما بالمعروف والحق؟ حكمًا يساعدهما على التغلب على

المشاعر السيئة وحضور الأنفس الشح؟ لماذا يصرّ كلاهما على حل رسمي قاهر؟ لماذا الإصرار على تمثيلية القضاء والمحاكم وتبادل الكيد؟

***

تحدثت مع إحدى الزوجات التي أشهد بأنها مظلومة. حكت لي أنها طلبت شهادة أقربائها، وخسرت القضية لأنهم قالوا: «سمعنا أنه يضربها»، ولم يقولوا: «رأيناه يضربها». وتلومهم على ذلك. فقلت لها: «ولكنهم يشهدون بالحق». فقالت: «ولكنه ضربني تكرارًا أمام أهله وأبي والجيران، ولكن لن يشهد أهله، ولن يشهد الجيران، ولن تُقبل شهادة أبي. فكيف آخذ حقي؟ لقد اضطررنا لشهادة الزور».

فنبهتها إلى أن الغاية لا تبرر الوسيلة. لكن ما لاحظته أن كلاهما متدين، غير أن القيم اضطربت حين جاء الخلاف القاسي المهين.

وحين يدخل الخلاف باب المحكمة، يفقد القلب صوته، الاستعانة بالمحاكم والمحامي في أغلبها أشبه بالتورط في تمثيليات، بينما لو تدخل أهل الزوجين وأصحاب الثقة لكانت الحلول والفصل بلا تمثيليات.

***

حين نحتاج إلى استخراج أوراق رسمية، يُطلب معها حزمة أوراق أخرى مصاحبة، وكل ورقة ومستند وشهادة لها ثمن من عشرات الجنيهات. وحين تبحث عن هذه الأوراق تجد أنها تخرج من جهاز بيانات واحد وتعود إلى الجهاز نفسه! كل ما في الأمر أنها خرجت مطبوعة بثمن لتدخل ثانية إلى نفس

المكان. عملية لا تُوصَف إلا بأنها تمثيلية لتبرير استنزاف المال. بينما في البلاد التي لا تدمن التمثيليات، تتم العملية برسوم معروفة دفعة واحدة في خطوة واحدة. لكننا نصرّ على التمثيليات، ونتجاهل مشاعر المواطن الذي يضيق صدره وهو مضطر لهذه التمثيلية التي جعلته ضحية، فيكره السلطة، التي توشك أن تضع عدادًا على أنفه لتحسب أنفاسه، فيضعها في خانة الشرير الذي لا هم له سوى الاستغلال المادي، وليس ولي الأمر الذي يحرص على مصلحته، وهذه المشاعر التي تنتج ليست في صالح المجتمع.

***

المسابقات للالتحاق بوظائف تمثيلية أخرى. فما أكثر الأقارب والمعارف! لا بد من إعلان، ومسابقة، وشراء أوراق للتقدّم، وعقد مقابلة، ثم انتظار النتيجة... وفي النهاية يفوز أبناء العاملين وأقارب المحاسيب والموعودون بالسعد. ومثلها تمثيليات الانتخابات والتصويت، عملية سطحية ظاهرية بلا عمق ولا شفافية، وظيفتها فقط مظهر ديمقراطية بنتائج استبدادية، وكله تمثيل، ينزع الأمل والثقة في وجود الشفافية، وينفّر المواطن من المشاركة في المجتمع بإيجابية.

***

انتقل إلى مؤسستنا التي أعمل بها موظف، وإذا به يبدأ علاقته مع الجميع بالشجار، ويصل به إلى أقصى درجة، ثم فجأة تراه يلين ويصالح الجميع ويبدأ معهم العلاقة الوظيفية بلا توتر. وبمرور الأيام حدث تقارب بيني وبينه وأصبح يثق بي، فصارحني بأنه له أسلوب متكرر: أن يتعمد الخلاف والقسوة مع المجتمع الجديد الذي يدخل إليه، ويتعلم من ردود أفعال

الجميع مدى صلابتهم النفسية وسلوكهم مع الغضب والخلاف، بعدها يلين جانبه مع الجميع ويتفاهم. في الوقت نفسه يسجل في ذاكرتهم غضبته وخلافه، فيظلّوا حذرين من هذا الانقلاب.
هذه القصة غريبة ولكنها متكررة، فكثيرٍ من الناس يغضبون تمثيلًا ويختلفون تمثيلًا ويتصالحون تمثيلًا، وهذا سلوك ضار يساعد على شيوع النفاق.

***

العملية التعليمية فقدت بوصلتها؛ فمدارسنا وكلياتنا غدت مظاهرَ تعليمٍ لا تمسّ جوهر المعرفة، بينما أصبحت الدروس الخصوصيةً هي النشاط الحقيقي المبعثر.
ولأن الواقع أقوى من الشعارات، فالأجدر أن يُكتفى بالتعليم النظامي المجاني حتى المرحلة الإعدادية، ويصبح التعليم بعدها حرًّا لمن يشاء.
عندها تتحوّل المدارس والفريق التدريسي في هذه المراحل إلى نظامٍ منظمٍ للدروس الخاصة نفسها، لكن تحت مظلة رسمية، برسومٍ عادلة ورقابة تربوية تحفظ الكفاءة وتمنع الاستنزاف.
أما الشهادات، فلتكن ثمرة امتحانات شفافة لا اعتبار فيها للسن، فيتقدّم إليها كل من يملك علمًا وكفاءة، حتى لو كان طفلًا.
وبهذا تتحوّل الظاهرة السلبية المستنزِفة إلى طريقٍ مباشرٍ للإنجاز، ويُفتح باب الأمل أمام جيلٍ يتقدّم بالمعرفة لا بالعمر، وبالقدرة لا بالشكل.
وهكذا تحفظ الدولة مسؤوليتها عن التعليم الأساسي، وتمارس تعليمًا قليل الربح عظيم الأثر، بينما تتفرّغ لمنح الشهادات وتنظيم الامتحانات، وتستعيد سيادتها على فوضى التراخيص

الجامعية التي تحوّلت، في غياب الرقابة، إلى بواباتٍ تُباع فيها الشهادات بالدولارات.

***

لو تأملت أي حوار بين اثنين لوجدت نفسك تتفرج على مشهد في تمثيلية. التمثيل واضح من الطرفين: كلاهما لا يريد أن يُفصح عما في نفسه، وكلاهما يتحدث بيقظة وحرص شديد على كلماته ومشاعره، وكلاهما يخفي طمعه أو هدفه أو نيته، وكلاهما يخلط كل جملة بكلمة عن الدين أو الرزق أو الرضا بالقضاء والقدر.

***

سُئل بروفيسور متخصص في قضايا الفساد والشفافية فقال: «كلما كانت التعاملات بدون موظف كانت الشفافية أكبر».
فالبلاد التي تتم مصالحها بالموظفين هي بلاد الفصال، فالفصال يحتاج بشرًا ونفوسًا تديره وتجري تمثيليات. وحين تكون المعاملات بالماكينات والمواقع الإلكترونية، تكون الشفافية.
وبهذا فالبلاد التي تصر على وجود موظف في التعامل، تتعمد توفير مناخ للفساد.

***

سلاسل التمثيليات كان لها أثر عملي على صديق لي، لأنه لا يُجيد التمثيل ولا يرى حاجة إليه.
حين يجلس في مجلس، يتكلم بعفويةٍ تامة، بلا نية إخفاء أو تزيين، وليس عنده ما يخاف عليه من الحسد أو اللوم.
لكن ما إن ينتهي المجلس حتى يتلقى التأنيب من أبنائه بسبب "سذاجته"، فمعظم ما قاله لا يصحّ في منطق الناس، لأن

المستمع سيفهم خطأ، أو يظن، أو يحترس، أو يتحفّظ... وهكذا بلا نهاية.
فالمصريون - في أغلبهم - شديدو الحساسية: للكلمة، والنظرة، وحتى للصمت. وكل ما يصدر من الإنسان يُفسَّر على وجوهٍ شتّى بحسب مزاج السامع.
وهذه النفسية القلقة المتوجسة هي ثمرة التمثيل المفرط الذي نعيش فيه منذ أجيال.
ولا حلّ إلا بتربية جديدة على الشفافية، على حسن النيّة وحسن اللقاء والفراق، لنتعلم من جديد الكلام الجميل، والفراق الجميل، والصبر الجميل.

***

ما بين فصال البائع والمشتري، ومحاكم الطلاق، وروتين الأوراق، وتمثيليات الوظائف والانتخابات، وحوارات الناس اليومية... يتأكد لنا أن مصر تعيش فوق خشبة مسرح لا يُغلق ستاره.
المشكلة ليست في التمثيل وحده، بل في أن الممثلين نسوا أنهم يمثلون، فصار الوهم واقعًا، وصارت الأدوار أثقل من النفوس.
والنجاة لن تكون إلا بالخروج من النصوص الزائفة إلى الصدق، من المشاهد المصطنعة إلى المعاملات الواضحة، من طول الحوار المرهق إلى كلمة حق صافية.
فإذا استبدلنا التمثيليات بالشفافية، والفصال بالوضوح، والخصام بالمصارحة، صرنا أمة لا تضيّع جهدها في عرضٍ لا ينتهي، بل تصنع مسرحًا حقيقيًا للحياة، تُكتب عليه أدوار العدل والرحمة والخير.

النوم في العسل

في رائعة وحيد حامد «النوم في العسل» قدّم نبوءة مصرية خالصة وخطيرة: أن يفقد الإنسان المصري المرهق، المهزوم، والمستهلك، النعمة التي تقوم عليها الأسرة وتمنح الإنسان شعورًا بأن في الحياة بقية متعة... وبالمجان. وتخيّل آثار هذا المرض إذا أصبح وباءً شعبيًّا، وردود أفعال الناس والسلطة، أمام هذه الكارثة النادرة.

وبرأيي، تحققت نبوءة وحيد حامد بالفعل، لكن على نحو أوسع وأشد؛ لأنه تخيّل مرضًا واحدًا ونعمة واحدة تُسلب، بينما الواقع أن أمراضًا كثيرة تفشّت بين المصريين، ونِعَمًا عدّة مماثلة تلاشت، وما زال سيناريو المرض وفقدان النِّعَم يتكرر، ويعيش الإنسان المصري هذا السيناريو كل يوم في شكلٍ جديد.

***

في الماضي، كانت العصبية – مثلًا – تُعتبر طبعًا بشريًّا وقدرًا إلهيًّا، فنطلب من الزوجة أو الزوج الصبر على عصبية الطرف الآخر. أمّا اليوم، ومع التقدم العلمي والطبي والنفسي، أصبحت العصبية مرضًا يجب علاجه. فالشخص العصبي إنسان يتآكله ضجيج داخلي لا يسمعه غيره، والعلاج متاح، خاصة حين يكون المرض شائعًا. ومع ذلك، لم يلتفت أحد إلى هذه القضية الخطيرة حتى الآن، فكانت النتيجة مزيدًا من المآسي: شقاق، عراك، طلاق، ومحاكم مكتظة بالقضايا.

ولو كان هذا المصري الذي أصابه الانهيار العصبي يعيش في بلد آخر، أكان سيُصاب؟ المعضلة أننا في مصر لسنا كغيرنا؛

ففي البلاد الأخرى تنشأ العصبية غالبًا من التربية الأسرية، أمّا نحن فنتعرض على مدار الساعة لآلات لا حصر لها تبث أسباب العصبية والانهيار النفسي. الضغوط هنا ليست عادية أو مقصودة فقط، بل هي وليدة تخلي الجميع عن الجميع.

***

مصر أشبه بأسرة كبيرة كثيرة الأبناء، كان يرعاها أب وأم يلبّيان حاجات كل طفل دون أن يزرعا بينهم روح التعاون أو التعاطف. وعند وقوع الخلافات، كان الأبوان يحلانها بطريقتهما. ثم جاء يوم تطلّق فيه الزوجان وتزوج كلٌّ منهما بشخص آخر، وترك الأبناء لمصيرهم. في هذه اللحظة، لم يكن أمام الأبناء سوى التعاون لتعويض ما فقدوه، لكن – وقد تربّوا على الأنا – نسي الأبناء معنى البيت، وصار كلٌّ منهم يبحث عن سقفٍ فرديٍّ يحتمي به، ازداد شقاقهم وعراكهم. ومع كل معاناة جديدة تولد أمراض نفسية، ويتبع الفشل مزيد من الفشل.

وهكذا هو حال المصريين في العقود الأخيرة: تخلٍّ من القمة، وأنانية تسري في القاعدة، وفشل، وأمراض، وكبت، ثم نوم في العسل.

***

القصة ليست عن العصبية أو الانهيار النفسي فحسب، بل عن البخل، والصراع على المال، والشقاق المستمر في بيئات العمل، والتنافس غير الشريف، وسباق النفاق. الهواء – كما نعلم – مكوَّن من خُمس أكسجين وأربعة أخماس نيتروجين، كأن أربعة أخماس النفاق تسري في التعاملات اليومية للمصريين تحت مسميات مختلفة. لا جدية، ولا صدق، ولا

صفاء قلب، ولا ثقة، ومع ذلك، يبقى في المصريين من يُقاوم هذا التيار الصعب بشرفٍ صامتٍ وإخلاصٍ عنيد.

لقد تخلّت النخبة والسلطة والمجتمع عن المصريين ومنحتهم ازدراءها، تعاملت معهم كدواجن في حظيرة، أو كخراف في مصنع صوف وألبان ولحوم. والحل واحد لا غير، لا بد أن يتعاون أفراد المجتمع على التشافي فرديا وجماعيا، ومع ذلك، لن يلتئم الجرح إلا من الداخل، وما حك جلدك مثل ظفرك.

***

لا شك عندي أنه من أفضل أفلام السينما العربية، لأنه رسم بدقة جوهر الشخصية المصرية: الطيبة الفطرية مع ضعف البصيرة، والذكاء العاطفي مع الجبن العقلي، والميل للمجاملة مع غياب الصراحة. وربما لو أنتج الفيلم اليوم لكان بطله طبيبًا أو مذيعًا أو محللًا نفسيًا، لكن الجوهر واحد: المصري الذي يضحك ويبكي في اللحظة نفسها، ويصالح نفسه مع تناقضه في وئامٍ غريب.

لا شك أن مسألة الفحولة من أهم المواضيع التي تهم الرجل الشرقي؛ فالرجولة عندنا تختزل في الذكورية، أما الوفاء بالعهد أو الصلابة أو التحمل وبقية القيم الأخرى، فتبقى قيمًا هامشية، ومجرد توابع فرعية ليس لها وزن، حين تُتَّهم الذكورية أو تضعف.

تظهر خفة دم الفيلم في دائرة الفحولة، لكنها تبلغ ذروتها في تصوير ردود أفعال، من تتعطل عنده الاستجابة لهذه الغريزة، ومثال ذلك:

يبدأ الفيلم بمشهد العريس الشاب الذي يترك عروسه ويتصدّر للقطار وينتحر!

قد يكون فشله مؤقتًا، وقد يكون مرضًا عضالًا، ولكن مهما كان السبب فسيناريو انتحاره لهذا السبب يُلهم ويُبرمج الشباب بجهل مركب. فحين يتقبل المشاهد هذا المشهد دون أن تتحرك داخله آلة النقد – سواء كانت عقلية أو غريزية – يصبح المشهد كارثة. فالسينما سلاح خطير، ولو تخيّلنا أن الممثل في الفيلم فقد ذراعًا أو قدمًا أو بصرًا ثم أقدم على الانتحار، لما قبل المشاهد هذا الحدث، ولتحرك في نفسه حديث عن أن الحياة غالية، وأن الإنسان لو فقد نعمة يجب عليه أن يدرك أنه يتمتع بنعم أخرى كثيرة. ولكن حين تكون النعمة المفقودة هي القدرة الجنسية، فلا بد أن تتعطل ملكة النقد، لأن في قناعتنا – سواء أدركنا أم لم ندرك – القدرة الجنسية تعادل الحياة. وهذه خدعة كبرى. ومن واجبات السينما فك هذه الخدعة وتلقين الإنسان ميزانًا معتدلًا يزن به النعم، ومعها يزن ردود أفعاله وانفعالاته في الحياة.

ومثل ذلك الأفلام التي يقتل فيها الرجل ابنته في قضايا الشرف... وهذه كانت بدايات معادلة قضايا الشرف والذكورة بالحياة.

***

يستمر الفيلم بنفس السيناريو، فيجعل الفشل في العلاقة له نتيجة وحيدة: شجار بين الأزواج دون أن يجرؤ أحد على النطق. قد يكون الشجار نتيجة معقولة للبعض، ولكن أن تكون ظاهرة شعبية! فهذا أيضًا مزيد من التلقين بردود الأفعال الضالة. فشل طارئ لعلاقة زوجية يتبعه شجار وتدخل الشرطة! هذا المشهد

يخدم الفيلم كوميديا، ولكنه يواصل البرمجة بأهمية وخطورة الحدث لدرجة أن ينتج تزاحم الشعب على أبواب أقسام الشرطة.

هذا الرجل الأمي الذي قتل زوجته حين نطقت عقب فشل العلاقة! مشهد كاريكاتوري صارخ، ولكنه يكرّس الشخصية الغبية التي تفقد عقلها حين تتعطل ذكوريتها وتتلقى كلمة فيها تلميح بالمعايرة. وضحك الناس على هذا المشهد، ولكن لم ينكره أحد، ولم يشعروا أنه خيال علمي. حتى مشهد الضابط الظريف الذي يحمل هم الشعب، يتغاضى عن تعذيب الرجل حين تراجع عن اعترافه، ومر هذا المشهد بسلام، وكأن التعذيب والإهانة أيضًا لا تتعارضان مع نبل بطل الفيلم.

***

لقد تدرب الشعب على حمل التناقضات بدرجة مذهلة... ولا يشعر بالتناقض بل بالانسجام المتوهم!

وهذا الرجل الذي جرّب نفسه في بيوت البغاء، بحثًا عن فحولةٍ ضلّت طريقها، لم يجد هناك إلا مرآةً لعجزه، فانقلب غضبه على الجدران يكسّرها كما لو كانت أصل الداء.

تتكرّر في الفيلم مشاهد مشابهة: انتحار، وقتل زوجة، شجار جماعي، ولجوء إلى الزنا أو الشرطة... كلها ردود أفعال هاربة من الفهم إلى الانفعال، ومن العقل إلى العجز.

وهكذا يتحول الفشل المؤقت إلى جنون دائم، وكأن العجز يُشفى بالتهوّر لا بالاعتراف، وبالجنون لا بالعقل.

أخيرًا، كانت النهاية العبقرية التي لا تسمح الرقابة بغيرها... نهاية لم تجد أمل حل إلا من أعلى، من السلطة. وحين لم يستطع أن ينطق، صرخت المظاهرة بالآه... آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه.

كانت تلك الآه آخر ما تبقّى من القدرة على التعبير.

وربما يأتي سيناريست من بعده ييأس من السلطة، ويصب أمله في الناس... في تغيير أفكار الناس وتعليمهم أن يعيشوا كالتروس، لا كدوائر بلا أسنان.

***

أخلص من ذلك إلى أن السينما، وهي تنبه لقيمة، تبعثر أحيانًا بجانبها قيمًا معاكسة دون وعي. الفيلم ينبه إلى أن القهر والكبت والهم والفوضى والغلاء وكل ما يعاني منه المواطن قد يحمل الجسد على التمرد، فيستسلم بطريقة عبقرية مؤلمة، فيُحرم الإنسان – الذي رضي بقهره في الخارج – من روح تسري فيه وتشعره بمشاعر سامية، تحرمه من العلاقة الخاصة، المجانية، التي لا توصف لروعتها... فتكون الخسارة أفدح من كل الخسارات التي حدثت في الخارج.

نجح الفيلم في بث هذه الفكرة الرائعة، ولكن ما بثه من برمجة ردود أفعال عشوائية وجاهلة كان من الممكن – بمزيد من الجهد – استبداله بسيناريوهات أخرى تتجنب هذا الأثر السلبي.

رحم الله «وحيد حامد» السيناريست والمفكر النادر، الذي جعلنا نرى أنفسنا بوضوح حتى وهو يصوّر كوابيسنا.

***

البدايات الصغيرة

كانت الأوقاف في مصر أشبه بنبعٍ قديم لا يعرف الناس متى بدأ تدفّقه، لكنهم عاشوا على مائه قرونًا طويلة. ينساب في صمت، يروي الأرامل والمرضى وطلاب العلم، ويعيد تشكيل حياة المدن والقرى دون ضجيج أو شعارات. ومع كل جيل كان هذا النبع يكبر، حتى بدا كأنه القلب النابض لمجتمع مدني تشكّل من تلقاء نفسه، قبل أن يعرف العالم هذا المصطلح أو يحدّد له تعريفًا.

ومن حول هذا القلب نشأت مدارس ومستشفيات وزوايا ومساجد ودور للفن والصنائع؛ مؤسسات تقف على أكتاف الناس لا على خزائن الدولة. وللأثرياء كان الوقف لحظة نور داخل زحام الحياة، يقتطعون فيها من ممتلكاتهم شيئًا يبقى بعدهم، كأنهم يرسلون إلى الغيب رسالة صغيرة تقول: لم نأتِ إلى الدنيا بلا أثر.

ولأن الأوقاف ظلّت مستقلة، تسير بقوة نيات أصحابها، بقيت دائمًا خارج يد السلطة الحديثة التي لا تطمئن لشيء لا تجري فيه قوانينها. وبين هذا الاستقلال وتلك السلطة نشأت علاقة دقيقة، تختلط فيها الرغبة في الرعاية برغبة السيطرة؛ علاقة ستنكشف طبقاتها كلما تعمّقنا في تاريخ هذا النبع الذي صنع روح مصر الاجتماعية.

***

غير أنّ استقلال الأوقاف لم يكن يروق للسلطة دائمًا. ففي عهد الخديوي عباس حلمي الثاني، كما يروي العقاد، امتدّت يد

الحاكم إلى أموال الوقف العام ليخلطها بما يخصّه، وحين حاول مبادلة أراضٍ وقفية بأخرى أقلّ قيمة، وقف الإمام محمد عبده في وجهه بصلابة هادئة. كان الخديوي يريد توسعة ملكه، وكان الإمام يريد عدلًا لا يضيع، فاشتدّ الخلاف بينهما حتى جرى تجاوز محمد عبده في تعيين مشيخة الأزهر كأنما ثمنًا لموقفه.

ولم تتوقف محاولات السلطة عند ذلك الحد؛ اتُّهم الرجل بما لا يجوز حين عجز خصومه عن كسر موقفه، لكنّ مقاومته نسجت خطًّا طويلًا واصله تلاميذه بعده. ثم جاء الزمن الذي لم يُبقِ مجالًا للمناورة: حقبة عبد الناصر، حيث آلت الأوقاف كلها إلى الدولة بقرار واحد، ودخلت مواردها خزائنها، وانطفأ بذلك استقلالٌ امتدّ قرونًا.

ومنذ ذلك الحين خفت وهجُ عادةِ الوقف لدى الناس، وانقطع السيل الذي كان يجري من أيدي الأفراد إلى حاجات المجتمع. لم يعد المرء يوقف أرضًا أو دارًا بملكه، بل بات الطريق الوحيد هو أن يسلّمها للدولة، فيتولى موظفوها إدارتها وحدهم، فتمسك بمفاصل نفوذها دون شريك.

ولم يبقَ في الساحة سوى إعلانات عن "أسهم" في أوقافٍ لا جذور لها ولا تاريخ، أشبه بظلال لوقف لا يعرف الناس أصله، ولا يُتاح لهم متابعة مصيره، ولا ضمان أن يمتد أثره عبر القرون كما امتدّت أوقاف الأجداد. أوقافٌ تُعرَض على الملأ كسلعة، ولكنها تفتقر إلى الروح التي منحت الوقف القديم خلوده وفاعليته.

لا ينهض المجتمع المدني إلا إذا امتلك حياةً تتدفّق فيه، ونموًا يتجدّد، وصوتًا مسموعًا في ما يتعلّق بشؤونه. وقد كان الوقف يومًا ما الشريان الذي يمنح المجتمع قدرته على الحركة واتخاذ القرار، لكنه مع مرور الزمن انكمش حتى صار مجتمعًا مفعولًا به، يفتقر إلى أدوات المقاومة والتأثير.

وفي تركيا يبرز المجتمع المدني كقوة واعية وصلبة، قادرة على تحقيق توازن دقيق بين مصالحها ومصالح الدولة والمستثمرين. فلا يستطيع رجلُ أعمال أن يشيد مصنعًا أو مشروعًا ضخمًا في مدينة ما قبل أن يتوافق مع أهلها؛ إذ يُنتظر منه أن يبني مدرسة أو حديقة، وأن يمنح المجتمع نصيبًا ثابتًا من منتجاته. هذا التفاوض ليس طقسًا شكليًا، بل دليلٌ على وعي الناس وصلابتهم، وعلى أن وعود المستثمر التزامٌ حقيقي لا يُكتب على الورق فحسب، بل يُحاسَب عليه إن قصّر أو اعتدى.

وفي هذه البيئة، تظل السلطة أكثر شفافية، وتترك للمجتمع مساحةً للتفاوض، فيختلط القرار الاقتصادي بالمسؤولية الاجتماعية. وهنا يتشكل التوازن بين الفرد والجماعة، وتزدهر المدن في جو من التفاهم، وتقوم المصانع على وعي مشترك، ويصبح النمو عملية مستمرة ومستدامة.

***

في المدن المصرية، ترتفع الأبراج السكنية في مساحات خانقة، ويُباع كل سنتيمتر فيها بلا ضابط أو رؤية، حتى تبدو العشوائية كأنها الحاكم الفعلي. غرفة خُصصت يومًا لمحوّل كهرباء تُباع لتصبح محلًا تجاريًا، وبئر السلم نفسه يتحول إلى

واجهة لمصلحة فردية، بينما تتدفّق الأموال إلى الجيوب دون أن يجرؤ أحد على المحاسبة.

ولسنوات طويلة ظلّ سكان الشقق يطاردون أبسط حقوقهم، مثل تركيب العدادات الكهربائية، في ظل غياب سلطة حازمة تُنفذ القانون، تاركة المجال للجشع الفردي أن يعبث بقلب المدينة، ويصبح السكان تائهين على مائدة اللئام.

نتذكر هنا القصة التي تربينا عليها أطفالًا: شيخ جمع أبناءه وقدّم لهم حزمة أعواد لم يستطيعوا كسرها، ثم فكّها وأعطى كل واحد عودًا فكسروه بسهولة. فعلّمهم أن قوتهم في الاجتماع، وأن التفرّق يضعفهم كما تضعف الأعواد إذا فُرّقت.

مجتمع الأوقاف الذي استمر قرونًا طويلة كان مجتمعًا «متحزمًا» متماسكًا، بينما مجتمع اليوم ينكمش ويتقلص حتى صار أخيرًا أشبه بأعواد مفردة، ضعيفة بلا حماية، والشعب المصري ينتكس إلى أعواد.

وكلمة السر في أن يعودوا متحزمين، ويستعيدوا قوتهم، هي أن يجتمعوا، يفرضوا رأيهم، ويقاوموا قهرهم وعزلهم.

***

بعيدًا عن الحكم على الممارسات الفردية، يبقى السؤال: ما حق المجتمع في هذه الأنشطة؟ المجتمع الذي يتأثر بكل فعل حوله، والذي يمكن أن يتحوّل ضحية أو مستفيدًا.

تخيّل لو مددنا خيطا من قصة المجتمع التركي، وقام كل صاحب بناية كبرى بتكريس محل صغيرً للطعام الشعبي، وقف دائم يقدم الفلافل والفول والكشري مجانًا، ويتولى أهل الخير الإسهام بما يستطيعون. هنا يتحوّل العطاء من صدقة عابرة إلى

منظومة مستدامة، تصبّ في قلب المدينة نفسها، وتنتشر مع كل بناء جديد، فتخلق شبكة من الخير المتواصل لا تختفي مع الزمن.

***

أثناء إجراء التحاليل في مركز شهير، قالت الطبيبة إن أكثر من 90% من الأطباء يتلقون مالًا مقابل إرسال المرضى للمعمل، ونادرًا ما يترفع الطبيب عن هذه الأموال الحرام، إضافة إلى جنيه نسبة مماثلة من الصيدلية أسفل العيادة. ومع ذلك، هناك نبلاء قليلون، يتقاضون كشفًا بسيطًا لا يزيد عن خمسين جنيهًا، وتزدحم عندهم العيادات لأنهم منفذ نادر للرحمة، ويصرّون على أن يكون العمل خالصًا للخير لا للمال.

لكي يكون العمل الخيري نموذجًا يُقتدى به، يجب أن يكون معقولًا ومرئيًا وقابلاً للتطبيق. فخفض الكشف إلى ربع الثمن قد يجعل الغني والفقير يستفيدون، لكنه لا يقدم مثالًا واقعيًا للأطباء الآخرين. النموذج الأكثر فاعلية أن يجعل الطبيب ثمن الكشف لا يختلف كثيرا عن زملائه، ثم يخصّص يومًا كاملاً للكشف المجاني. هكذا يُحقق المثال توازنًا بين مصلحة الطبيب وراحة المريض، ويصبح دافعًا عمليًا للأطباء الآخرين لتقليده.

القول بسرية الصدقة قد يكون له مبرره، لكن اليوم المصلحة قد تقتضي علانيتها، فالإحسان المعلن يحيي المجتمع ويعيد التفاعل بين الناس، ويشعرهم بأن لديهم قدرة على صنع الخير، بدل اليأس والخيبة والوحدة. المبادرات الصغيرة، مثل فسيلة صالح، قد تتحول إلى شرارة تغيّر المجتمع، وتشجع الآخرين

على التبرع بالمأكل والمشرب والتعليم والخدمات المجانية، لتعود روح التعاون والوحدة التي ميزت المجتمع المصري عبر تاريخه.

نحن بحاجة إلى أعمال علنية ترافقها روح المحبة والوطنية، تُظهر أن الخير ممكن، وتثبت أن الفرد قادر على التغيير، وتخلق تيارًا شعبيًا ينبع من المصريين ويعود بالنفع على الجميع.

***

الإهانة

في مجموعة «النحنحات» لإبراهيم صموئيل، شدتني قصة قصيرة بعنوان «الناس الناس»؛

قصة سائق حافلةٍ متهوّر يطير مسرعا في حركات بهلوانية بالركاب بين المنعطفات، والجميع متشبّث بمقعده، قلوبهم ترجف، وألسنتهم تتمتم بدعاء النجاة، ومع ذلك لا يجرؤ أحد منهم على أن يهمس للسائق بأن يخفف سرعته قليلًا.

وحين وقعت «المعجزة» وتشجع أحد الركاب بالاعتراض، أوقف السائق الحافلة، وأصرّ على إنزال هذا الجريء، وإلا لن يواصل رحلته.

فلم يساند الرجل الإيجابي أحد منهم، بل تواطأ الجميع على توبيخه واسترضاء السائق؛ خوفًا من التأخر، وخشية افتعال مشكلة، وتحوّل الاحتجاج إلى جرم، والشجاعة إلى خطيئة.

ثم تجرأ أحدهم فدفع الرجل خارج الحافلة، فامتدت تدفعه أيدي آخرين، وتحوّل الركاب - في لحظة واحدة - إلى «قوة جماعية»

تطرد المُنقذ وتحتضن الجلّاد.

وهبط الرجل مُرغَمًا، وشاهد الحافلة تنطلق مبتعدة بأولئك الذين دافع عنهم.

وعاد الركاب إلى مقاعدهم، وإلى رجفان القلوب نفسه، بينما السائق يواصل استعراضه البهلواني... كأن شيئًا لم يكن.

ماذا كان يدور في خواطرهم؟

الخوف من أن يتطور العراك فينتهي بهم جميعًا في قسم الشرطة، الخشية من أن يُضطروا للنزول ودفع أجرة أخرى، أو أن يتأخروا دقائق عن أعمالهم..

الرجل مسرع ومغامر، وربما نصل بالسلامة مبكرًا، وهذا سيكون جيدًا ولا أحد منهم يفكر في الخطر الأكبر:

أن تنقلب الحافلة في أي لحظة، وأن تصبح هذه المخاوف الصغيرة، تفاصيل بلا قيمة أمام حادثٍ واحد.

لقد انقلب الركاب على الرجل الوحيد الذي امتلك الشجاعة، وصاروا- من حيث لا يشعرون - حرسًا للظلم.

ولو كانوا شعبًا آخر، لأصبحوا كلهم في صف ذلك الرجل، ولأوقفوا السائق عند حدّه مهما كلفهم ذلك من وقت أو جهد؛ لأنهم بذلك يعلنون قوة المجتمع وقدرته على ردع الانحراف المنفلت.

لكنّ المجتمعات الجاهلة تتنازل عن حقوقها، وتغضّ الطرف عن الإهانة، فيتجرأ الظالم، ويتمادى المعتدي، حتى تصبح الإهانة «نمط حياة» لا حادثة عابرة.

***

وخلاصة القصة.

لقد غامر الركاب بحياتهم، لكنهم لم يجرؤوا أن يغامروا بالوقوف أمام السائق؛ وبخلوا بساعة من وقتهم ليستعيدوا كرامتهم.

***

ماذا لو:

ماذا لو أن الركّاب نهضوا من صمتهم، ووقفوا إلى جوار ذاك الرجل الذي اعترض، وأحاطوا السائق بهيبة الجماعة، وقالوا له:

قدْ بسلام... فالطريق ليس ملكك، وحياتنا ليست لعبة بين يديك.

عندها فقط كان سيهدأ، وينكسر حدُّ تهوره، ويفهم أن الناس جادين وحاسمين، وإن أبى، فالقسم قريب، والمحضر حاضر، والوقت الذي يخسره الجميع يصبح ثمنًا زهيدًا مقابل أن يُؤدَّب المخطئ وتُستعاد كرامة الراكبين.

ولو تناقلت الأفواه هذه الحكاية، لما جرؤ سائق بعد اليوم على العبث بأرواح الناس، ولأحسّ المواطن أن لوجوده وزنًا، ولصوته أثرًا.

وماذا لو صار هذا المشهد عادةً جميلة وثقافة تتكرّر في كل موطن يتنمّر فيه الفاسد على المجتمع؟

ماذا لو أصبح الجمهور، حين يرى الظلم، كتلة واحدة؛ تردع، وتوبّخ، وتنزع عن المعتدي سطوته المصطنعة؟

إنها أفعال صغيرة، متواضعة المظهر، لكنها حين تتكرر، تكتسح الفساد من الشوارع والمكاتب والطرقات، وتعيد للناس مهابتهم وكرامتهم وحقهم في الهواء النظيف والعدل البسيط.

في القصة الأولى - ويا للأسف - يمتدّ الفساد حتى يصير ظلًّا ثقيلًا فوق رؤوس الجميع، وتضمحل كرامة الإنسان، ويدفع من «حياته وسلامته وشفافيته وعدله» أثمانًا لا تُحصى.

أما القصة الثانية ـــ ويا للحسرة أنها محض خيال ـــ فتتمدد فيها كرامة البشر، ويتضاءل الفساد حتى يخجل من نفسه، ويقترب الإنسان خطوةً وراء أخرى بعيدا عن الإهانة.

***

«مشهد مدهش من الواقع»

في شارع مكتظ بالمارة، وقف شرطي أمام سائق سيارة يعمل عليها. لم يكن المشهد استثنائيًا في بدايته؛ مخالفة ما: ربما «مرورية»، أو «عدم وجود طفاية حريق»، أو «حمولة زائدة»، أو «متاع يبرز من السيارة ويمثل خطرًا على الطريق».

لكن لحظة واحدة حوّلت الاعتراض إلى عرض مؤلم للسلطة:

مدّ الشرطي يده بصفعة على وجه السائق، ثم تبعها بركلة مهينة في مؤخرته، وأغلقها بشتيمة قاسية، قبل أن يسمح له أن يواصل رحلته كأن الأمر مجرد إجراء عابر.

بعد دقائق، سأله رفيقه عن شعوره بالإهانة التي تلقّاها أمام الجميع.

فابتسم السائق ابتسامة تحمل مزيجًا من الرضا والتسليم، وقال:

«هذا الشرطي طيب... ما فعله قليل. كان قادرًا أن يغرّمني كثيرًا. أو يعتقلني، لكنه خفّف عني، واكتفى بما رأيت.»

ليس هذا مشهدًا من رواية كئيبة؛ بل واقع يتشكل في ظل غياب الشفافية، وتضارب القوانين، وفساد الرقابة.

ففي بيئة كهذه، يصبح المواطن—سواء أراد أم لم يُرد— مخالفًا محتملًا في كل لحظة، معلّقًا بين غرامة ثقيلة، أو تهديد غامض، أو إهانة تُقدَّم بوصفها «تساهلًا». وهكذا تنقلب المعادلة: إهدار الكرامة أهون من إهدار المال، وأخفّ من حافة الحبس.

ومع تكرار هذه المشاهد، يذوب تعريف الإهانة، ويتسيّل معنى الكرامة حتى يفقد حدوده، فلا يعود المرء يعرف أين يبدأ الجرح، وأين تنتهي العادة.

ولهذا، حين تعرّض ركاب الحافلة لمشهد مماثل، لم يشعروا أن كرامتهم مُستباحة؛ لأن الحسّ نفسه أصبح مثقَلًا، يعتاد ما لا ينبغي أن يُعتاد.

***

يحكي صديقي:

في سنوات الجامعة، كانت «المذكرة» بابًا آخر من أبواب الإتاوة المقنّعة. لم تكن كتابًا علميًّا حقيقيًا، بل أوراقًا منسوخة جمعها الدكتور الشريف - المهاب لسلطة منصبه لا لعلمه - ثم سلّمها لطالبٍ يتولى بيعها بعدد الطلبة.

أعلن الدكتور، بمنتهى الاطمئنان، أن الشراء «اختياري»، وأن من يرغب فليوقّع أمام اسمه. لكن كل طالب كان يعرف أن الاختيار هنا ليس إلا كلمة مهذّبة للخوف:

إن لم تشترِ، ستعيش تحت ظلّ الرسوب، أو تحت رحمة مزاجٍ لا يُؤمَن.

خمس جنيهات كان ثمن تلك المذكرة، مبلغ يبدو هينًا اليوم، لكنه في ذلك الزمن كان ثروة صغيرة. كنتُ أمشي كل يوم سبع

محطات - من الخازندارة إلى باب الحديد - لأوفّر «قرشًا ونصفًا» ثمن المترو، ثم أركب القطار باشتراك سنوي لأعود إلى بلدتي.

فخمسة جنيهات كانت تعني مئات الأيام من المشي، بينما قد ينفقها الدكتور في ليلة عائلية يسيرة، يلتهم فيها اللب والمكسّرات مع أبنائه... بكل سكينة.

نصحني أحد الزملاء أن أذهب للدكتور وأعتذر بأدب، وقال: «في ناس بتعمل كده».

ذهبت، وفي داخلي شعور بالمهانة أكثر من الخجل، وطلبت منه أن يعفيني. لم يقل إلا «حاضر»، ثم أشاح بوجهه عني، كأن طلبي مجرد ضوضاء عابرة.

خرجت من مكتبه، فلاحقني زميل يهمس مذعورًا:

«إنت كده فكرته... هتسقط في المادة!»

سألت طلابًا أكبر سنًا، فمنهم من قال: «مش هيعملها»، ومنهم من أكد: «هيعملها ووقتها تذكر كلامي».

تاه رأسي بين الروايات، وبين خوفٍ لا يمكن التحقق منه، وفي النهاية اشتريت المذكرة.

والمدهش - أو المؤلم بالأحرى - أن ملايين الطلبة في مصر، وعبر عشرات السنين وحتى اليوم، لم يبرز من بينهم ذلك الراكب الذي شاهدناه في الحافلة، ذاك الذي وقف وأعلن اعتراضه بوضوح.

لم يُسجّل يومًا أن طالبًا واحدًا وقف في وجه هذه الإتاوة المقنّعة، أو احتجّ عليها، أو حتى قال: «لماذا؟».

ليس لهذا تفسير سوى أن الطلبة—كما المواطن في الشارع - يُهزمون نفسيًا منذ سنواتهم الأولى، ويُروَّضون على القبول، ويُدرَّبون على الصمت، حتى يتشكل في داخلهم يقينٌ خادع بأن الاعتراض خطر... وأن الظلم قدر... وأن السلامة في الانحناء.

***

في العيادات الخاصة، اشتهر نظامان لأجرة الكشف: «كشف عادي» و«كشف مستعجل». والمستعجل لا يعني إلا شيئًا واحدًا: أن يأتي المريض متأخرًا، فيدفع أكثر، فيتجاوز الجميع، ويعبر الصفّ كأنه لا يراه. يدخل فورًا، ويخرج قبل من سبقوه، بينما يجلس الآخرون في صمت مطبق، لا يشعر أحدهم بالإهانة، ولا يجول بخاطر أحد أن يقاطع عيادة الطبيب الذي قسّم المرضى إلى طبقتين: طبقة تدفع فتُعامل، وطبقة تنتظر لأنها لا تملك إلا الانتظار.

وعلى المنوال نفسه، يمدّ بعض المرضى للممرض الذي ينظم الدخول ورقة مالية صغيرة، لا يطلب شيئًا، لكن الجميع يعرف ما سيحدث بعدها. أما في المستشفيات - حكوميةً كانت أو خاصة—فقد أصبح تقديم «الإكرامية» للممرضين والعمال عادة لا يتصور الكثيرون أن تُدار الأمور بدونها. من يدفع ينال اهتمامًا، ومن لا يدفع يغامر بأن يُهمل، والإهمال في عالم المرض قد يكون أخطر من المرض نفسه.

***

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ).

نحن نهين أنفسنا بأيدينا، ثم نرفع أصواتنا متسائلين عن سرّ تفشّي الفشل والفساد. نُحمّل السياسة كل اللوم، مع أن السياسة ليست إلا مرآة كبيرة تعكس وجه المجتمع كما هو.

فمجتمع سلبي، مُنهك الضمير، قليل الهمة، لا يُنجب إلا حكمًا سلطويًا وسياسة عرجاء.

وما دمنا قد قبلنا الإهانة في الصفّ، وفي القاعة، وفي المستشفى، وفي الطريق... فلا عجب أن نجدها في السلطة.

هكذا تُختتم الحكاية:

مجتمع لا يصون كرامته الصغيرة، لن يستطيع أن يطالب بكرامة كبيرة

***

النقد والنية

في امتحان الابتدائية عام 1970م، انتهيت من إجابة أسئلة مادة الحساب، وأردت أن أسجّل نتائج المسائل حتى أتأكد من حصولي على الدرجة النهائية، فأمسكت بدفتر الإجابة وقطعت الورقة الأخيرة لأكتب النتائج، فلمحني طالب فاستدعى المراقب وأخبره. فأسرع ليتأكد من كلامه، ثم سألني عن سبب قطع الورقة فأخبرته فتأكد من سذاجتي. فاستدعى رئيس اللجنة ومدرّس المادة، الذي أخبرهم أن الورقة تستحق الدرجة النهائية. ولم أكن أعلم أنني ارتكبت مخالفة ستؤدي حتمًا إلى رسوبي؛ لأن قطع الورقة قد يؤخذ كعلامة متفق عليها بيني وبين المصحّح كي يعطيني درجات لا أستحقها. فقاموا بتكوين لجنة منهم، وعملوا محضرًا وأرفقوه بورقتي، وشهدوا أنني فعلت هذا عن جهل لا عن قصد. ولم أخبر أبي خشية العقاب، وظللت في قلق حتى ظهرت النتيجة، وحصلت على الدرجة النهائية في المادة.

الذي أتذكره جيدًا هو التحوّل في مشاعري في هذا الحدث؛ ففي البداية كنت شديد الحنق على هذا المتطفّل الذي أبلغ المراقب عني، ولكن بعد فهمي وتصحيح الخطأ تبدّلت مشاعري تمامًا إلى الامتنان. وما بين الشعورين وقت يسير وفارق كبير.

***

حين يفقد الأب ابنه ويبحث عنه مع الجيران وأهل المدينة، لا يدور في خاطر الأب سوى فكرة واحدة: معرفة أين الولد. لا يهم مصدر هذه المعرفة، فلو جاءه عدوّ له أو منافس وأخبره

بمكانه، هل يرفض المعلومة وينتظر أن تأتيه من صديق؟! لا شك أن الصادق في طلب الحقيقة لا يطلب سواها ولا يعنيه من أين يحصل عليها، وحين يحصل عليها لا يسارع بالتكذيب أو الاتهام، وإنما يتحقق منها. بل لو كان العدو مصدر المعلومة عن مكان الولد لتغيّر هذا العدو إلى صديق حميم.

***

تسير فتاة في الطريق، غفلت عن أن رداءها الجميل مشتبك بسنّ دبوس فكشف عن ظهرها، ثم رأتها فتاة تكرهها لأنها تعتقد أنها تغار منها، فأخبرتها وهي شامتة فيها، فلم تُنصت لها ولم تصدّقها، واستمرت في السير، حتى التقت بشاب لفت نظرها فامتلأت خجلًا وأسرعت بتغطية نفسها.

***

عندما يُبدع الإنسان «مقالًا، قصة، عملًا سينمائيًا، رداءً، بناءً، لوحةً... إلخ»، ينظر إليها بذاتية، ويصعب عليه نقدها. وربما يكون بهذا العمل الفني عيب كبير يطفئ ما فيه من إبداع، مثلما كانت الفتاة تسير برداء جميل يسرّ الناظرين، ولكن اشتباكه بالدبوس جعله فاضحًا وداعيًا للخجل. قد يكون في العمل الفني عيب لا يستطيع مبدعه رؤيته، فالآخر يتميز بقدرته على الرؤية بوضوح من خارج ذات الإنسان.

***

كثيرًا ما تذكّرت مواقف في الشباب كنت أعتقد أنني على صواب، ثم اكتشفت بعد فوات الأوان خطأها. فأقول لنفسي: «لو صارحني أصدقائي بهذا الخطأ، لصححته في لحظتها وتلافيت الخطأ مبكرًا». ثم أواصل تأمل مواقف أخرى،

فأجدني كثيرًا ما رفضت نقد أصدقائي وكنت مصرًّا على الخطأ، فأدرك أن النقد يحتاج إلى «ناقد ومستجيب للنقد». ونحن في حياتنا نتقلب بين رفض النقد واتهام قائله، وبين جُبن الصديق عن النقد حتى لا يثير حفيظة صديقه.

***

يُتداول بيننا مصطلح: «النقد البنّاء والهدّام». وهذا يعني أن على الناقد أن يكون حسن النية. والنية غيب، وبهذا فلا إمكان لمعرفة كون النقد بنّاءً أو هدّامًا.

النقد هو «تحديد قيمة الأشياء»، ولهذا سُمّيت «النقود» نقدًا لأنها تحدّد قيمة الشيء الذي تشتريه. حينما نُدخل المعادن للمختبر لنميّز منها النفيس والوضيع، ونحدّد درجة النقاء والشوائب، نقوم بكل حياد ونزاهة بوضع المعادن على أدوات القياس والاختبار. لنفترض أن أحدهم لديه تذكار من الصفيح ورثه من العائلة، عندما يضعه تحت الاختبار لا يكون هناك تأثير لمشاعره تجاه القطعة التي تمثّل التراث العائلي، فقيمتها ليست في كونها ذهبًا أو فضة. المشاعر لا علاقة لها بالنقد. لو تدخلنا في نية الناقد لما خَلُص نقد، ولو صنّفنا النقد إلى «بنّاء وهدّام» لدامت العيوب، ولأصبح الإتقان نادرًا. وسوف يكون ردّ **السلطة السياسية، وأصحاب المذاهب والأيديولوجيات والمصالح الخاصة**: «إن نقدك هدّام».

***

حدثت عام (1977) انتفاضة شعبية أيام السادات بسبب زيادة الأسعار، فأطلق عليها الإعلام: (انتفاضة حرامية). (انتفاضة شعبية وانتفاضة حرامية)... (نقد بنّاء ونقد هدّام). الانتفاضة

هي الانتفاضة، والنقد هو النقد. وإدخال الصفة يُبطل أثرها، فالتصنيف والتفتيش في النية يعطي للخطأ والفساد والتيه قُبلة الحياة. وبهذه الطريقة أصبح الاحتلال استعمارًا، والمقاومة إرهابًا، وانقلب كل حق إلى نقيضه الباطل.

***

هل حدث أن قال لاعب كرة القدم للناقد الرياضي: «بدل ما تنقدني ورّيني شطارتك، وانزل الملعب وأحرز أهدافًا!»؟

الناقد الروائي أو السينمائي قد يكون ماهرًا جدًا في مهنته ونقده، ولكن لا يُطلب منه أن يكون بمهارة من ينقده في ممارسته للمهنة. ولا يجب أن يضع نفسه مكانه ويتخيّل خجله أو ضعفه أو ارتباكه. النقد يكون باردًا وبلا انفعال أو تعاطف أو انحياز.

***

في سلسلة محاضرات تاريخية، ذكر المؤرخ مذبحة المماليك عام (1811)، وعبّر عن تفهّمه لما فعله «محمد علي» الذي غدر بالمماليك وذبحهم، وقام بتقمّص مشاعر وطموحات ونية «محمد علي»، فاختلطت عملية النقد، فوقع في خطأ شرعي حين أعطى عذرًا ومبررًا للغدر بالمماليك، والاعتداء على قيمة كبرى. لأنه تقمّص كناقد عقلية ونفسية السياسي، بينما في الإسلام والأديان التي تعلي من القيم الكبرى (الغاية لا تبرر الوسيلة).

وعندما جاء ذكر الدولة العثمانية ومصر، قال: «نظرًا لأن «محمد علي» قام بمحاربة العثمانيين وكاد أن يحتل القسطنطينية لولا تدخل الغرب، ظل العثمانيون حريصين على

ضعف قوة الجيش المصري وقلة عدده، وألا تنهض مصر علميًا أو في أي مجال ممكن أن تبرز فيه. وهذا الوضع استفادت منه إنجلترا قبل احتلال مصر، حيث كانت تستعين بالخلافة للاعتراض على أي زيادة في التحصين والتسلح بمصر، وهذا ما سهّل احتلال الإنجليز مستقبلًا لمصر».

ثم قال: «إنني كمؤرخ لا أستطيع حسم موقفي تجاه هذا الحرص على ضعف مصر، فأتأرجح بين تفهّم عذر العثمانيين من خوفهم من المصريين، وبين حزني لضعف الجيش المصري الذي هُزم بسهولة من الإنجليز».

لقد ارتكب المؤرخ خطأ كبيرًا حين سمح لمشاعره ومنطقه بالإسهام في نقد الأحداث، وخلط بين الحكم القيمي والحيل الدبلوماسية والغدر السياسي. وكان الأولى أن يقوم بالنقد بناءً على القيم الكبرى، فلا يوجد عذر في الحرص على ضعف مصر التي تتبع الدولة العثمانية.

***

يحكي الفنان «سمير صبري» في مقابلة مع المحاور «مفيد فوزي»: «كنت في مدرسة فيكتوريا بالإسكندرية، وكان يقرأ المدرّس عشرين صفحة من رواية «هاملت» لشكسبير، ونحن لا نفهم شيئًا، وهو يعلم أننا لا نفهم، ولكن نشعر بأن هناك أزمة. ثم يطلب منا النزول إلى المكتبة حيث بها 36 كتابًا عن (التردد في شخصية هاملت)، وفي الأسبوع القادم يدور الدرس حول هذا التردد. وكان في هذا النقاش جوانب اجتماعية ونفسية وعاطفية عميقة، وكنا صغارًا بالابتدائي. فتعلّمنا البحث والنقاش. وفي وقت آخر تعقد مناقشة بمسرح المدرسة عن

«عقوبة الإعدام»، ويجلس تلميذ يؤيد العقوبة، في مواجهة تلميذ آخر ينقدها، وتجتمع المدرسة كلها لتنصت لهذا الحوار ونتعلم كيف النقاش والنقد».

نخلص من هذه القصة أن تعلّم النقد وتقبّله والتدرّب عليه يكون في المدرسة في الصغر.

***

في أوائل الثمانينيات كنت في المرحلة الجامعية، وكنت أقرأ بشغف كل صفحات مجلة «أكتوبر» التي يرأسها الكاتب «أنيس منصور». وكان أشهى وأول ما أقرأه مقالات الدكتور «حسين مؤنس». كنت أقول لنفسي باللغة الهندسية: (هذا المفكر مضبوط على نفس ترددي)، وأقصد التردد الكهربي electrical frequency. وبينما أنا مندمج في قراءة مقالاته، إذا به ينحني على موضوعات دينية، فإذا بي أُصاب برعشة ورهبة، وهذا ما حدث بالفعل بلا مبالغة. أدهشني وصدمني تلك الجرأة في طرح الأفكار، فقلت لنفسي: «هذا أستاذ تشبّع بالأفكار الغربية ولم يتأدب مثلما نتأدب مع شيوخنا حين يتحدثون عن الإسلام، فيستعمل قلمه بجرأة غير منضبطة».

ولهذا قررت لسنوات ألّا أقرأ له ما يتعلّق بالإسلام، فقط أستمتع بما يقدمه من أفكار عن الحياة والفكر وكتبه عن تاريخ الأندلس. ومرت الأعوام، وأدركت معنى النقد، ولم تعد تصيبني الرعشة، وقرأت للجميع، وفهمت ما كان يقوله «حسين مؤنس» عن ضرورة النقد المجرّد: «مشكلة المسلمين أنهم لا يرضون إلا أن يتناولوا وجبات تاريخ بالسكر! ولكنه ليس تاريخًا وفقط، بل دين، ومنه وبه تُدار حياة شعوب وأمم».

مما قرأت: «العقل النقدي أفضل بمراحل من العقل المعرفي، لكن لا بد أن يتأسّس النقد على معرفة. فالقناعات ليست خزانة المجوهرات الخاصة بك، تُحفظ في مكان محصّن، ثم تُكرّس عمرك كله للدفاع عنها ضد السرقة، بل لا بد لها من الاختبار والتعرض للنقد، ويكون دومًا لتثبت أصالتها وصحتها. أما إن كنت تخشى أن تكتشف أنك كنت ساذجًا طوال رحلة عمرك، فهذا الكشف أقل فداحة من أن ينقضي بقية عمرك وأنت ساذج».

***

قال الدكتور «خالص جلبي» في كتابه *في النقد الذاتي: ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية*:

«إن مفهوم النقد الذاتي يعتبر غريبًا على المسلمين المعاصرين، فهم لا يرون فيه مصطلحًا إسلاميًا، لأنه لم يأتِ في كتب ابن تيمية والشوكاني وابن القيم وغيرهم، ولم يرد باللفظ في الحديث أو القرآن، ولهذا لا يفهمون إلا أنه «تشهير»، وهذا يجب تعديله».

ومن الأفكار التي طرحها الناقد الكندي «نورثروب فراي» في كتابه *تشريح النقد*: أن الأدب في ذاته لا يمكن تدريسه بالطريقة ذاتها التي تُدرّس بها العلوم، وإنما الذي يُدرّس هو النقد الذي يفتح لنا أبواب الفهم والتحليل. يقول:

«لا يمكننا أن نُعلّم الأدب؛ ما نُعلّمه هو النقد الذي يتناول الأدب».

وقد بسطها أحد المفكرين قائلًا:

«لا يمكن تعليم الأدب مثلما أنه لا يمكن تعليم الطبيعة، ما يمكن تعليمه هو النقد الذي يدرس الأدب، والفيزياء التي تدرس الطبيعة. النقد علم الأدب مثلما أن الفيزياء علم الطبيعة».

وهذا ما يلتقي مع ما أكّد عليه الدكتور «فؤاد زكريا» في كتابه *الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة* حين قال:

«من أكبر الأخطاء أن تكون البداية باليقين والإجابات الجاهزة، البداية هي النقد والتساؤل واختيار واختبار الأفكار».

***

فالنقد – عند فراي وزكريا معًا – ليس أداة تدمير ولا وسيلة للهجوم، بل هو المدخل الطبيعي للمعرفة، والميزان.

النقد ليس خصومة شخصية ولا فعلاً هدامًا، بل هو عين ترى ما قد يغيب عن صاحبه، وميزان يزن القيم بعيدًا عن الأهواء والنيات. وحين نحرره من التصنيفات المضللة، يصبح أداةً للمعرفة والإصلاح، وسبيلًا لا غنى عنه لنهضة الفكر والمجتمع.

***

البطولة

في كتابه «كتب لها تاريخ» يروي المفكر جلال أمين لقاءه بالروائي الطيب صالح خلال محاضرة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، حيث أبدى الطيب صالح دهشته من القدرة الأسطورية التي امتلكها نجيب محفوظ على تكريس حياته للكتابة. فمحفوظ - كما قال - لم يغادر مصر إلا مرتين قصيرتين، وظل وفيًّا لنظام صارم وضعه لنفسه في القراءة والكتابة، خشية أن يربكه السفر أو يُخلّ بانضباطه. لذلك لم يكن غريبًا أن يصل إلى جائزة نوبل.

ثم يضيف الطيب صالح مقارنًا: فبينما عاش محفوظ راهبًا للأدب، عاش يوسف إدريس حياة مختلفة تمامًا؛ أبدع كثيرًا، لكنه انغمس في تجارب الحياة واتساعها. ويروي أنه التقى يوسف إدريس في بغداد بعد إعلان فوز محفوظ بنوبل، فوجده غاضبًا لأنه رأى نفسه الأجدر بها. فأجابه الطيب صالح مداعبًا: «يا رجل، أتريد أن تعيش الحياة بكل لهوها وأسفارها ثم تطمح فوق ذلك إلى نوبل؟».

من يهب حياته لغاية سامية يوجّه جهده كله نحوها، كما فعل نجيب محفوظ؛ فإرث الإنسان الحقيقي ليس ما يتركه لأسرته، بل ما يتركه للناس من وعي وإبداع. هذه هي البطولة وأسمى أشكال العمل الصالح.

***

في منتصف القرن التاسع عشر لاحظ الطبيب النمساوي إغناتس سيملفيس ارتفاعًا لافتًا في وفيات الأمهات داخل عيادة

التوليد التي يشرف عليها الأطباء في مستشفى فيينا العام، بينما كانت الوفيات أقل بكثير في الجناح الذي تديره القابلات. وكان من المفترض أن يحدث العكس؛ فالأطباء أكثر علمًا وخبرة، بينما القابلات يتلقين تدريبًا محدودًا.

ومع الملاحظة الدقيقة تبيّن له أن مبنى عيادة الأطباء كان يضم مشرحة ملتصقة بغرفة الولادة، ما يجعل الأطباء يمرّون عليها بعد تشريح الجثث وقبل مباشرة عمليات الولادة. ووقع ما أكّد شكوكه: فقد جرح أحد الأطباء نفسه أثناء التشريح، ومات سريعًا بأعراض تشبه ما كانت تعانيه الأمهات. عندها افترض سيملفيس أن هناك «شيئًا دقيقًا» ينتقل من الجثث إلى الأيدي ثم إلى أجساد النساء، رغم أن فكرة الجراثيم لم تكن معروفة.

أصدر أوامره بوجوب غسل الأيدي بمحاليل مطهرة قبل الولادة، فانخفضت الوفيات. ومع ذلك، قاومه زملاؤه الأطباء والعلماء، لاستهانتهم بفكرة وجود كائنات دقيقة ولرفضهم الاعتراف بأن ممارساتهم كانت سببًا في موت النساء. وتحوّل الخلاف المهني إلى صراع قاسٍ انتهى باتهامه بالاضطراب العقلي وإيداعه مصحة، حيث لقي حتفه داخلها. ولم يُنصفه التاريخ إلا بعد سنوات طويلة عندما أثبت العلم صحة نظريته.

***

اعتدنا في مشاهد الكوميديا رؤية باروكة تتعلق بطرف فتقفز عن رأس صاحبها أو مساحيق ذائبة تكشف وجهًا مختلفًا عمّا بدا عليه قبل لحظات. وفي الحياة يحدث الأمر ذاته؛ فكم من أشخاص نالوا تقديرًا لا يستحقونه، وكم من آخرين عاشوا بعيدًا عن الأضواء. لكن الموت، حين يهبط، يعمل كقوة طبيعية

صامتة تزيل ما تراكم على الإنسان من زيف وادعاء، فلا يبقى منه إلا جوهره الحقيقي.

فالموت ينزع عن الإنسان أقنعته كلها، ويمحو ما بناه من مظاهر وسمعة، ولا يترك حيًا سوى أثره. فمن نُسي بعد أيام من رحيله لم يكن شيئًا يُذكر، ومن بقي عمله شاهدًا عليه دخل سجل الأبطال. فالبطولة ليست في الصورة التي نبدو بها، بل في الأثر الذي يظل قائمًا بعد أن نغادر المسرح.

***

تابع المصريون عام 1979م مسلسل «المشربية»، لكن ما كان يُعرض على الشاشة لم يكن حكاية حارة، بل أمّة كاملة.

كان «عباس» الفتوة التائب: يعرفه الجميع قويًّا، لكنهم يرونه عاجزًا أمام لصّ آثار يتحدّاه علنًا.

لم يكن العجز من ضعف، بل سرّ قديم، وابتزاز لئيم، وخوف عباس أن يسجن.

كل حلقة كانت صفعة: لصّ يتمادى... حارة تُنهب... ناس تنتظر...

وكلما طال صمته، ازداد جُرأة العصابة، وخوف الناس، واتسعت مساحة الظلم.

ابتزاز فرد واحد صنع عجز جماعة بأكملها.

وفي النهاية، فعل ما كان يجب أن يفعله منذ زمن: وقف في وجههم، ورضي بثمن المواجهة.

سُجن، نعم... لكنه حرّر الحارة، وأسقط العصابة، وكسر القيد الذي كلفه وكلف الجميع سنوات من المرارة.

اتضح أن الثمن الذي خافه كان أقل ألف مرة من ثمن الهروب.
وهكذا هو الابتزاز: يبدأ كهمسة في أذن فرد، وينتهي كوحش يلتهم مجتمعًا بأكمله.
الإعلامي الذي يخاف على نفسه فيخضع... يُسمع خوفه عبر الميكروفون ملايين البشر.
السياسي الذي يسكت عن حقّه، يسكت معه شعبٌ بأكمله.
الدولة التي تُدار بالخوف تُورّث خوفها لأجيال.
ما يتهرب منه فرد في الظل... يدفعه الجميع في الضوء.
والخلاص؟
البطولة فيما فعله عباس يوم تحرّر من خوفه: أن تُواجه من البداية، لأن الهزيمة الحقيقية ليست في السجن، بل في أن تظل أسيرًا لابتزاز يفسدك ويفسد الدنيا من حولك.

***

في بداية الدرس، وقف المعلم أمام الطلبة، ثم فجأة أشار إلى طالبة بريئة تمامًا وقال بصوت قاطع:
"أنتِ... اخرجي!"
خرجت مذهولة، وبقي الجميع ينظر في الأرض.
لا أحد تحرك.
انتظرهم المعلم لحظة، ثم قال بنبرة تكشف خيبة أعمق من الغضب:
"ما الذي رأيتموه قبل قليل؟ ظلمًا... ومع ذلك صمتّم.
وهنا تبدأ كل الكوارث في الحياة:

ظلم صغير يمرّ... فيكبر.
وباطل واضح يُرى... فلا يواجهه أحد."
اقترب أكثر، ونبرة صوته صارت كالسهم:
"ظننتم أن الأمر لا يعنيكم.
لكن تذكروا جيدًا:
الظلم الذي لا يمسّكم اليوم... سيطولكم غدًا بلا رحمة.
ومن ينتظر غيره ليحمي الحق... يعيش في عالم لا يحميه فيه أحد."
"العدالة لا تتحقق بوجود قانون... بل بوجود أناس لا يصمتون."
والظلم لا يتمدّد بقوة الظالم... بل بغياب صوت الشاهد.

***

في الجامعات المصرية، ظاهرة قديمة مستمرة لعشرات السنين: مذكرات تُباع بأسعار مبالغ فيها، وكتابة اسم الطالب على ورقة، وتهديد ضمني بأن من يغيب اسمه معرض للرسوب.
عشرات آلاف الأساتذة، ملايين الطلاب... ومع ذلك، لم يعترض أحد.
الصمت ليس حيادًا، بل مشاركة في الظلم.
تخيلوا: طالب واحد ينهض ويقول لدكتور الجامعة:
«لماذا تُجبرونا على كتابة أسمائنا؟ ولماذا المذكرة أغلى من المرجع الذي يحتوي أضعاف ما فيها؟»
صوت واحد يكسر الصمت.

تخيلوا لو تبعه طالبان آخران، أو ثلاثة، يرفعون أصواتهم معه، يسألون ويطالبون بالحق، ويصرّون على تفسير واضح.

هنا تتضاعف القوة، ويصبح الفساد مكشوفًا، ويشعر الظالم بالارتباك، ويبدأ النظام في إعادة حساباته.

لو حدث هذا منذ عشرات السنين، لما استمر هذا الاستغلال، ولما سكت الطلاب عن ظلم طال أجيالًا.

أليس مدهشًا أن ملايين الطلاب صمتوا لعشرات السنين، وأن ثلاثة شجعان فقط كانوا كفيلين بوقف الظلم مبكرًا؟

الشجاعة في قول "لا" عند أول تجاوز، ودعمها من زملاء آخرين، تمنع الظلم من أن يتحوّل إلى عادة وواقع، وتحرّر المجتمع من قبضة الصمت.

***

البطولة ليست امتيازًا للأبطال الخالدين، ولا صفة محجوزة للعظماء في كتب التاريخ، بل خيار يومي يُتخذ في لحظات صغيرة وكبيرة، حين يقرر الإنسان أن يقف مع الحق ولا يساوم على ضميره.

لقد رأينا نجيب محفوظ راهبًا للأدب فأثمر إبداعًا خالدًا، وعباس قاوم الابتزاز بعد صمت طويل، والمعلم علم طلابه درسًا في رفض الظلم، وسيملفيس دفع حياته ثمناً لإصراره على إنقاذ الآخرين... كلهم أرّخوا حقيقة واحدة:

«الصمت أمام الباطل هو بداية الفساد. البطولة هي أن نصون القيم حين يتخلى عنها الآخرون، أن نرفع الصوت حين يسود الصمت، وأن نؤمن بأن مواجهة الظلم مسؤولية جماعية لا يقوم بها فرد واحد»

الحرافيش وثلاث لوحات مصرية

حكايات نجيب محفوظ ومرآة الركود

في رواية «الحرافيش» لأديب نوبل نجيب محفوظ، عشر حكايات لعشرة أجيال متتالية. لو اعتبرنا الجيل عشرين عامًا، لقدّرنا أن الحكايات كلها، والتي جرت خلال الفترة التي خضعت فيها مصر للعثمانيين، استغرقت قرنين من الزمان. وكلما قرأت القصص المتتالية لا تستطيع مقاومة الدهشة؛ فالروايات تجري في حارات القاهرة، ولو قام المؤلف بتغيير ترتيب القصص لما شعرت باختلاف، إذ إن «المجتمع – الناس – طبقاتهم – أفكارهم – عاداتهم – مخاوفهم، وكل ما فيهم» لم يتغير.

هناك ملاحظة أخرى غير سارة، وهي أن الرواية لو تمددت للوراء قرنًا أو قرنين، لما حدث اختلاف واضح؛ فالركود الذي كانت فيه مصر في العصر العثماني حفظ المجتمع المصري في ثلاجة السكون والتخلف، حتى جاءت الحملة الفرنسية لتستيقظ مصر على كابوس الواقع.

***

مصر الحديثة: قرن من التغيرات

لنتخيل أديبًا يكتب سلسلة روايات حدثت خلال القرن الأخير، قرن واحد وليس قرنين، هل سيكون الأديب حرًّا في الكتابة كما كان أديب «الحرافيش» حرًّا في كتابة تؤرخ وتدور أحداثها عبر قرنين؟

لو تم تأليف سلسلة مثل «الحرافيش» للقاهرة في الفترة بين ثورة 1900 إلى عام 2000، خلال قرن كامل، فسوف يضطر لمراعاة التغيرات التي حدثت وتأثر بها «الاجتماع والسياسة والدين والاقتصاد... إلخ».

تغييرات تتراوح بين:

* الاحتلال البريطاني.
* ثورة 1919.
* صراع الأحزاب والإنجليز والقصر.
* أثر الحربين العالميتين على مصر.
* الجماعات الدينية والشيوعية والليبرالية.
* الاستقلال.
* عصر جمال عبد الناصر والتأميم والحروب.
* عصر السادات والحرب والانفتاح ومبادرة السلام.
* عصر مبارك واستراحة المحارب مع استقرار ثقيل رافض لأي تغيير، ومؤدٍ لتكوّن طبقات وتحالف بين طبقات المال والنفوذ.

كل هذه الأحداث جعلت الشعب في كل جيل مختلفًا عن الذي قبله، وهذا النشاط بعكس السكون التام الذي عبر قرنين في رواية «الحرافيش». وسوف تصبح الرواية عشر روايات مختلفة، ولا يمكن اللعب في ترتيبها الزمني، إذ يصبح كل سيناريو خاصًّا به، ولا يصلح ليكون سيناريو للقصة التالية.

***

يقظة مع الحملة الفرنسية

«وإذا كانت حكايات محفوظ مرآة للركود، فإن الحملة الفرنسية كانت المرآة الأولى لليقظة»

ليلة هادئة في القاهرة أواخر القرن الثامن عشر، يجلس المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي إلى أوراقه، يدوّن ما رآه في أيام الحملة الفرنسية. لم يدهشه فقط مدافع الفرنسيين، ولا مطابعهم، ولا خرائطهم، بل مشهد أبسط بكثير: فرنسي يدفع أمامه عربة خشبية صغيرة ذات عجلة واحدة، محمّلة بعدة قفف من التراب.

توقف الجبرتي طويلًا أمام هذه «الأعجوبة». كيف لم يخطر ببال المصريين – الذين اعتادوا حمل القفة على ظهورهم – أن يصنعوا أداة بسيطة تسهّل الجهد؟

لكن المفارقة الأدهى أن المصريين القدماء قبل آلاف السنين كانوا أول من رسم العربات الحربية على جدران المعابد، وأول من طوّع العجلة لخدمة الحرب والزراعة. فكيف إذن ضاع هذا الإرث؟ وكيف انقطعت عن ماضيها كليًا، فعاشت «فقدان ذاكرة حضارية»؟

فالمجد الحضاري ليس فقط في الإنجاز الأول، بل في القدرة على حفظ الذاكرة وتطويرها عبر العصور. الأوروبيون عاشوا انحطاطًا طويلًا، لكنهم نهضوا منه بفضل تراكم ما حفظوه من الإرث الروماني والإغريقي والإسلامي، ومصر القديمة اخترعت لكنها لم تحافظ على التراكم، فضاعت إنجازاتها وسط الركود الطويل.

القصة تكشف حقيقة عميقة: الحضارة ليست اختراعًا لمرة واحدة، بل قدرة على المراكمة والتطوير المستمر.

عصر الأسرة العلوية والخطو الهادئ المعتدل

شعب قعد وسكن قرونًا متوالية، ثم عقب الحملة الفرنسية التي انتهت بحكم أسرة «محمد علي»، سار لمدة مائة وخمسين عامًا بمصر خطوات هادئة إلى الأمام. وختمت تلك الخطوات بالاحتلال البريطاني، حيث كان في الصراع بين السلطات الثلاث «الإنجليز والأحزاب والقصر» ثغرات ومساحات للحركة يتنفس فيها الشعب وينال تطورًا في كافة المجالات.

وكمثال على الفرص التي تنشأ نتيجة صراع السلطات، لولا الصراع بين الدائنين الأوروبيين والخديوي إسماعيل على مشكلة الديون، لما سُمح بإنشاء البرلمان المصري كي يستعين به على الأوروبيين. وبسبب البرلمان وما تبعه من صحف، تطورت شخصية الشعب، وأصبحت مصر قدوة في «العلم – الثقافة - الفنون - السياسة - الحداثة... إلخ» لكافة الشعوب العربية.

حتى إن «غاندي» تمنى أن يقابل «سعد زغلول»، وكان حلمه أن تنال الهند مثلما نالت مصر من نضج وإنجاز سياسي. وأصبحت مؤلفات طه حسين والعقاد وزكي مبارك والمنفلوطي تُقرأ بشغف في بلاد العرب، ونشأت وتطورت صناعة السينما والفنون في مصر. ولو استمر هذا الخطو الهادئ بعد رحيل الاستعمار، لكانت مصر في مقدمة دول العالم.

***

من الاعتدال إلى العجلة الطائشة

لكن الذي حدث بعد الاستقلال كان على العكس تمامًا من المرحلة العثمانية؛ فبدلًا من السكون التام، توالت بعجلة تغيرات حادة متتالية، خطوات ما تكاد أن تبدأ ويدفع الشعب ثمنها، حتى تصدر قرارات أخرى في اتجاهات مختلفة وقد تكون عكسية. وهكذا أصبح الشعب وكأنه في سيارة تحملهم في طرق غير ممهدة بغرض الوصول، وإذا بالسائق يندفع بسرعة متهورة إلى الأمام، ثم ينحني يمينًا، ويندفع بسرعة متهورة أخرى، ثم يتجه للخلف ويندفع بأقصى سرعة، وهكذا ظل السائق يغامر ويدير دفة الوطن في كل الاتجاهات، خاضعًا لنزوات وتقديرات وأهداف ضالة وطائشة.

ظل الركاب في العربة ولم يتذوقوا وصولًا ولم يكسبوا ثمرة. أصبح النشاط كله سيرًا مندفعًا في كل الاتجاهات، حتى أصبح الركاب شديدي الضعف في «النظر – التحمل – الفكر – التساند – الحوار – الأخلاق». فالسفر المتواصل في كل الاتجاهات أجهدهم، لأن السكون المستمر تبدّل إلى حركة مستمرة بلا بوصلة، وكأنه الحرث في الماء.

استيقظ عامل في مصنع على خبر بيع المصنع ضمن قرارات الانفتاح، فوجد نفسه مطرودًا بعد سنوات من الخدمة، فشد الرحال إلى الخليج بحثًا عن لقمة العيش. وبعد عقدين، وقف شباب الجامعة بطابور طويل أمام السفارة يحمل أوراقه في ملف أزرق، يحلم بفرصة هجرة. كلاهما كان ثمرة مباشرة لاندفاع العربة الطائشة بلا بوصلة.

والبداية كانت رحيل الاستعمار، وإلغاء الأحزاب، وما تلا ذلك من حروب متتالية، وتشتت الانتماء بين التيارات الماركسية

والليبرالية والدينية، وما بين هزيمة ساحقة ونصر عظيم، وحرب وسلم، وفقر وغنى فاحش، وقعود وهجرة، وتدين سلفي وتحرر غربي؛ تبهدل الشعب في هذا الهرج الذي لم يعطِ أي ثمرة حتى اليوم.

***

ثلاث لوحات لفهم المصري

وبهذا تم رسم ثلاث لوحات لسيارة:

- «سارت بسرعة تكاد تكون صفرية، وفي دوائر مغلقة لعدة قرون».
- «سارت إلى الأمام سيرًا طبيعيًا يجمع بين السلب والإيجاب لقرن ونصف».
- «فجأة أصبحت العربة طائشة لما يقرب من قرن، وإلى اليوم».

هذه اللوحات الثلاث يجب أن تؤخذ في الاعتبار حين نحاول فهم المصري اليوم من عدسة علم الاجتماع، فلو لم ننسب «المزاج واللغة والعلاقات والسلوكيات والطباع... إلخ» المصرية إلى هذا التاريخ الذي تمثله اللوحات الثلاث، فسوف ننجرف إلى التسرع في إدانة ظالمة للإنسان المصري.

***

النموذج التركي لعربة الشعوب

في الحربين العالميتين الأولى والثانية، انحازت تركيا إلى ألمانيا، وتحملت مثلها ثمن الهزيمة الثقيل. وحين أرادت ألمانيا بعد الحرب الثانية بناء الدولة من جديد، استعانت بحلفائها الأتراك، وانتشر الإنسان التركي في كل المهن وتخلل كل شرايين المجتمع الألماني.

تتابع ميلاد أجيال تركية في المجتمع الألماني، فتشرّبوا كل ما فيها من «خبرات وعلوم وإدارة وسياسة واقتصاد وآداب وثقافة ... إلخ»، وتشربوا العقلية الألمانية بانضباطها وعاطفتها ومزاجها. وألمانيا قطعة من أوروبا، وبهذا أصبح لدى تركيا ملايين الأتراك الذين لديهم مؤهلات وعقلية نقل الحداثة والحضارة كاملة إليهم.

ومع ذلك ظلت تركيا متخلفة كثيرًا عن أوروبا، لأن قادة تركيا كانوا أشبه بمصر في قيادة عربة الشعب، قرارات كثيرة متعارضة، ولا تأخذ فرصة النضج ونيل الثمرة، وهذا بالإضافة إلى تسرب الفساد. حتى جاء «أردوغان» وحزب «العدالة والتنمية»، فكل ما فعله هو «السير المعتدل وتحديد الهدف في مناخ من الشفافية»، وبهذا القرار اليسير توفر المناخ للاستفادة من أتراك ألمانيا، وفي عقدين أصبحت تركيا دولة كبرى في كل المجالات وتنافس الدول العظمى.

ويرجع السر دائمًا إلى قادة الشعوب الراشدين. وربما بتحرر سوريا اليوم، أصبح لديها نفس الفرصة بسبب جوارها مع تركيا، فلو كانت القيادة رشيدة لنقلت الحداثة التركية إلى سوريا العربية بأسرع ما يمكن.

***

واليوم، أتمنى لو اختارت مصر الحرية والشفافية، فتنفض عنها الاستبداد والفساد، وتعيد إلى الإنسان كرامته ليصبح قيمة كبرى، ويشرع الجميع في جذب خيوط حضارتهم الأولى الكامنة في جوهر الشخصية المصرية، وينسج منها حضارة اليوم.

قُبلة فرنسية
(خداع الصورة وبؤس الحقيقة)

في كتاب «التغريبة البلالية»، يحكي بلال فضل:

كان في مسرحٍ أمريكي، وبجانبه أرملةٌ أمريكيةٌ بدينةٌ تجاوزت الخمسين عامًا.

وبعد انتهاء العرض، وأثناء استعداد الجمهور للمغادرة، أعلن ميكروفون المسرح عن غلق الأبواب مؤقتًا، نظرًا لأن الرئيس الأمريكي «باراك أوباما» سيحضر مسرحيةً في المبنى المجاور، وبسبب الإجراءات الأمنية طُلب من الجميع الانتظار حتى يدخل الرئيس.

تعالت الأصوات وتذمّر الحاضرون.

باحترافٍ وسرعة بديهة، خرج بطل المسرحية إلى خشبة المسرح وقال:

«اليوم عيد ميلادي، وأريد الاحتفال! سيشاركني أبطال المسرحية بالوقوف إلى جانبي، وهديتهم لي أن يلبّوا أي طلبٍ أو سؤالٍ من الجمهور.»

ساد الحماس، وتلاشى الغضب. فقامت السيدة البدينة بحماسٍ طفولي وهي تنادي الشاب الوسيم بطل المسرحية:

«أريد منك قُبلةً فرنسية طويلة!»

ضحك الجميع حين أشار إليها أن تتقدّم لتنال هديتها من شفتيه، فقفزت بخفةٍ لا تليق ببدانتها المفرطة، وفي ثوانٍ كانت أمامه على المسرح.

وبعد السماح بالخروج، كانت السيدة بجوار «بلال فضل»، فدار حديثٌ بينهما، ثم قالت له:

«هل تعرف أنني ندمت على تقبيل هذا الوغد النحيل؟»

ظنّ بلال أنها تقصد زوجها الراحل الذي لم يُتقن القُبلات الفرنسية، لكنها تابعت قائلة:

«لم أكن أعلم أنَّ الممثلين عندما يرقصون لساعتين تكون رائحة عرقهم كريهة إلى هذا الحد!»

أدركتُ حينها أن الواقع خلف الأضواء لا يشبه ما يُعرض على خشبة المسرح.

فالجمهور الذي شاهد القُبلة واشتعل حسدًا عليها، لم يدرك أن صاحبتها كادت تُفرغ معدتها من الرائحة المقرفة!

***

تُذكّرني تلك الحادثة بما روته الفنانة «مريم فخر الدين» عن تجارب القُبلات السينمائية، وكيف أنها لم تكن بتلك الرومانسية والأريحية التي يتخيلها المشاهد.

وضَرَبت مثالًا بالفنان عبد الحليم حافظ، إذ كان يعاني من مرحلةٍ متقدمة من مرض الكبد، وأن رائحة الدم التي تفوح من فمه كانت مزعجة إلى حدٍّ لا يُطاق، ثم عادت واعتذرت عن هذا التصريح المسجَّل.

سُئلت عن إحساسها عندما غنّى لها عبد الحليم «بتلوموني ليه»، فقالت:

«كنت أفكر: هاطبخ إيه لجوزي!»

تلك الصراحة تكشف أنه بينما كان ملايين المشاهدين مندمجين في الأغنية العاطفية، كانت الفنانة بأفكارها في مكانٍ آخر. وهذه المفارقة البسيطة تختصر كثيرًا من مظاهر الحياة التي تَخدعنا بسطحها وتُخفي باطنها.

***

هناك مفارقة أخرى: نجوم السينما الذين يُعتبرون فتى وفتاة أحلام الجماهير، حين يتزوّجون يظنّ الناس أن الجمال اقترن بالوسامة، وأن الحلم اكتمل.

لكن لا تمرّ شهور حتى تتصدر أخبار الطلاق الصفحات، ويتسرّب من الطرفين كلامٌ يصدم الجمهور: عن العصبية، والأنانية، والغرور، وعدم تحمّل المسؤولية، وربما ما هو أفدح.

وحين يتبادلان الاتهامات، يكتشف الناس أن هؤلاء النجوم بشر، ليسوا كما تخيّلوهم على الشاشة.

ولهذا يُقال بين الفنانين - إن زواجهم من بعضهم لا يدوم - فكيف يكونون حلم الشباب من الجنسين، وهم لا يحتملون بعضهم في الواقع؟

***

وإذا كانت السينما قد صنعت أوهامها على الشاشة الكبيرة، فإن وسائل التواصل الاجتماعي أعادت إنتاجها على شاشةٍ أصغر، لكنها أكثر تأثيرًا.

ففي وسائل التواصل الاجتماعي، يقوم الجميع بنشر بوستاتٍ وكلماتٍ ومواعظٍ ومواقف لا تخرج في أغلبها عن مظهر «القُبلة الفرنسية»؛ تتجمّل أمام شاشة «فيسبوك»، وما وراء الشاشة قد لا يختلف كثيرًا عن طعم القبلة التي تجرّعتها الأرملة.

ولهذا فوسائل التواصل تحتاج يقظةً حتى لا تؤثر على مزاج الناس وتغرّهم وتغويهم.

***

في فيلم «حب في الزنزانة» ظهرت شخصيةٌ ثانويةٌ بالسجن، جَسَّدها الفنان «محمد أحمد المصري» الشهير بلقب «أبو لمعة».

حين قال لزميله في السجن وهو يبتسم برضا غريب:

«بيأكلونا هنا ببلاش، ده العيش لوحده يشبع، وبيعالجونا ببلاش، وجايبين أخصائي اجتماعي بيحل مشاكلنا، وعاملين سور حوالين السجن وواضعين حراس علشان ما حدش من بره يخش علينا يزعجنا، يا أخي احمد ربنا، ده إحنا في نعمة! شايف النعمة؟ شايف العيش؟»

فرد عليه زميله قائلًا:

«بس فيه حاجات أهم من العيش.»

فقال «أبو لمعة» بثقة:

«طبعًا... اللحمة!»

هذا المشهد شديد البراعة، ويحمل جانبًا نفسيًا عميقًا من خداع الذات؛

فهو تصويرٌ ساخر لإنسانٍ يتكيف مع قبح الواقع حتى يراه جميلاً، ويستمتع بالقيود لأنها تمنحه وهم الأمان،

فينقلب الظلم إلى راحة، والسجن إلى «نعمة»،

فتنطفئ الرغبة في التغيير، ويُدفن الطموح تحت غطاء الرضا الزائف.

***

تذكّرني شخصية «أبو لمعة» بظاهرةٍ نراها كثيرًا في حياتنا اليومية،

حين يبرر البعض فقره أو فشله بعبارات مثل:

«الحمد لله، غيري أسوأ»، أو «الراحة مش في الفلوس».

فيتحول الرضا من فضيلةٍ إلى تخدير، ومن طاقة هدوءٍ إلى وسيلة هروب.

فبدل أن يكون القبول بالواقع خطوةً نحو إصلاحه، يصبح جدارًا يمنع التغيير.

هذا النوع من الرضا الزائف يشبه السجين الذي يمدح جدران زنزانته، لا لأنه يحبها، بل لأنه نسي أن هناك حياةً خارجها.

إن التوازن الحقيقي هو أن نرى الأشياء كما هي؛ لا نُجمل القبح بالكلمات، ولا نُسوده باليأس، بل نفهمه كما هو، ونسعى لتغييره إن كان قبيحًا.

بهذا فقط نتحرر من «سجن الوهم» الذي نصنعه بأنفسنا، ونعيد تعريف النعمة على حقيقتها.

***

في مذكرات نوبار باشا، حكى أن «إبراهيم باشا» ابن «محمد علي»، الذي صال وجال بجنوده في الجزيرة العربية لمحاربة الوهابيين، وفي اليونان فأخمد ثورتها، وفي بلاد الشام حتى وصل إلى قرب أسوار القسطنطينية، كان لا ينام الليل، وكان نومه متقطعًا، ويرسل في طلب نوبار.

وسأل يومًا العبدَ الحبشيَّ الذي يسهر معهم:

«هل يستمر هذا الوضع زمنًا طويلًا؟»

فقال:

«نعم، إن الرجال الذين قتلهم يجيئون لإيقاظه من نومه ليلًا.»

وكان إبراهيم يعيش في رعبٍ من أبيه، فيخشى أن يأمر بقتله.

في هذا المشهد فقط، كان الفارس والأمير - الذي كان حديث الدنيا - يعاني الأرق، وتأتيه كوابيس من قتلهم، ويمتلئ بالهموم خوفًا من أبيه حاكم مصر.

فلو علم من يحسدونه هذه الحياة الثقيلة، هل يتمنون أن ينالوا مثل حظّه كاملًا، أم يحمدون الله على السلامة؟

ومن دروس الحاضر: من يتمنى أن يكون في موقف «بشار الأسد»، الذي كان شعار حزبه «بشار إلى الأبد»؟

هل تبقّى من آثار متعةٍ لمن كانت نهايته هروبًا وزوال ملك؟

إن الملك قبل أن يُنزع بنهاياتٍ مأسوية، هو بريق المجد والتجمّل الذي يبهر الناس فيحسدونه، ويغفلون عن حقيقة ختام قصته المدوية.

***

«يحكي صديقي الذي أصفه دائمًا بالحكيم، أنه حين يبهره جمال نجمات السينما، كان يرتد بخياله إلى زوجته، ويتخيلها وقد أصابها سهم الحظ فأصبحت نجمةً سينمائية نالت بريق الأضواء وأدوات التجميل، فتصبح محط أنظار الشباب».

ثم يفيق من خياله سريعًا، فلا يجد ميزةً لا تتحلّى بها زوجته.

وينطبق الأمر على نجوم السينما الرجال، فكل ما يُسلَّط عليهم من أضواء ليس إلا مظهرًا زائفًا - كقُبلةٍ فرنسيةٍ تخفي وراءها رائحة العرق.

***

قد تبتسم المتعة وهي تُخفي الألم، وتتلألأ السعادة وفي عمقها الشقاء، وتنتفخ الهيبة وهي تستر الهزيمة.

إنها مظاهر، لا حقائق.

السعداء نادرون.

***

وكثيرًا ما دار بيني وبين أصدقائي نقاشٌ حول «المحظوظين» الذين وُلدوا وفي أفواههم ملعقةٌ من ذهب، وكأنها جواز المرور إلى السعادة.

لكن الحقيقة أن السعادة لا تأتي من الذهب، بل من القلب.

فالقلب هو المصدر، سواء أمسك صاحبه ملعقةً من ذهب، أم أكل بأصابعه.

«الحياة الزوجية ليست قُبلةً فرنسية، بل قد تتخللها قبلاتٌ من كل صنف، وتبقى جميعها ألوانًا في لوحة الحياة الكاملة.»

تبقى «القُبلة الفرنسية» - مثل كثيرٍ من مظاهر الحياة - مشهدًا براقًا على الخشبة، يخفي وراءه حقيقةً لا تُرى.

***

حين يبقى الفأر في القلب

تحكي أسطورةٌ هنديَّةٌ:

«إنَّ فأرًا كان في محنةٍ مستمرَّةٍ بسبب خوفه من القطط، فأشفق عليه ساحرٌ وحوَّله إلى قطٍّ، لكنَّه أصبح يخاف من الكلاب، فحوَّله السَّاحر إلى كلبٍ، فبدأ يخاف من النُّمور، حوَّله السَّاحر إلى نمرٍ. عندئذٍ امتلأ قلبه بالخوف من الصَّيادين، فاستسلم السَّاحر عند هذا الحد، وأعاده إلى صورته الأولى كفأر، وقال له: "لن يُساعِدكَ أيُّ شيءٍ أفعله، لأنَّكَ تمتلكُ قلب فأرٍ. إذا أردتَ أن تتغيَّر، فابدأ بقلبكَ أولاً.»"

***

أغلب الأديان تمنح معتنقيها نفسية «شعب الله المختار»؛ صاحب العقيدة والإيمان الحق. وهذا يشحن الإنسان بمشاعر التعالي، فيندر فيهم الباحث عن الحقيقة؛ لأنهم موقنين بامتلاكها، ومتشبعين بالتعصب.

لو قام باحث برصد موعظة رجال الدين في الإعلام (سني – مسيحي – يهودي – شيعي – هندوسي... إلخ)، فسوف يجد تشابهًا، قد يصل إلى حدّ التطابق في النفسية والعقلية والمفردات.

كثيرًا ما تحاورتُ مع متدينين متعصبين من أديان مختلفة، وأثناء الحوار أتخيل من أحاوره وكأنه معتنق دين مختلف، فلا أجد خيالي يُنتج تغييرًا جوهريًّا. لا أجد فرقًا سوى أنه سيتحوّل من مسلم سني متعصب إلى مسيحي، أو هندوسي، أو شيعي متعصب، وسيدافع عن دينه بنفس القوة والعقلية.

حين يكون المتدين متفتحًا وباحثًا عن الحقيقة، لن يكون متعصبًا مهما كان الدين أو العقيدة التي يحملها.

مثلما كان الفأر يحمل قلبه الجبان معه في كل تغيير، سوف يحمل الإنسان نفسية «التعصُّب أو الانفتاح» معه في كل تغيير.

ولهذا يُقال للمتدين المتعصب، كما قال الساحر:

«إذا أردتَ أن تتغيَّر، فابدأ بالتخلص من التعصب أولًا».

***

لو وقف الإنسان أمام مرآة مقعَّرة أو محدَّبة، فسوف يرى تغيرات متعددة، كما في مرايا الملاهي؛ يرى نفسه سمينًا أو نحيفًا، ولو نظر إلى وجهه لأضحكه ضخامة أنفه، أو ضيق عينيه، أو طول أذنيه. ولو كانت المرآة سليمة، لرأى صورته كما هي.

لو أراد إنسانٌ أن يرى تغييرًا في صورته أمام المرآة، مثل أن يضيف شاربًا تحت أنفه، عليه أن يُطلِق شاربه أولًا، ثم يتوجه إلى المرآة ليرى صورته بشارب.

لكن لو خدع نفسه ووقف أمام المرآة ورسم على صورة وجهه فيها شاربًا، لكان تغييرًا وهميًّا. وبمجرد تحركه أمام المرآة، سيرى نفسه كما هي، والشارب مرسوم على سطحها ولا يتحرك معه. فالتغيير يجب أن يكون في الأصل، لا في الصورة المنعكسة.

***

كذلك الأفكار؛ الإنسان أفكار، الشعوب أفكار، الحياة محصلة أفكار الإنسان.

لكي تتغير حياة وسلوكيات الشعوب، لا بد أن تتغير أفكارهم. فالمرأة (أو الرجل) التي تؤمن بالسحر والحسد والأعمال السفلية،

تفكر كل الوقت في الحذر من أن ينالها هذا الشر، وتنثر الظنون في أصدقائها وجيرانها:

«فلانة حسدتها، وفلانة استعانت بالساحر ونثرت الماء أمام عتبة دارها، وفلانة تستعين بالجان لتؤذيها».

تحيا في علاقات متوترة ونفسٍ متشاكسة ومتعبة. ولو انتقلت هذه المرأة إلى مدينة أخرى، فسوف تحصد بسبب أفكارها، نفس التوتر والعلاقات والمشاعر السيئة.

ولا حلّ سوى أن تتغير أو تعتدل فكرتها عن الحسد والسحر، حتى تتحسن حياتها وعلاقاتها ومشاعرها.

ولهذا يُقال لمن يريد التغيير، كما قال الساحر للفأر:

«إذا أردتَ أن تصلح حياتك وعلاقاتك، فابدأ بالتخلي عن الأفكار المرهقة والضالة».

***

عقب الحرب العالمية الثانية، عُقد مؤتمر للحلفاء المنتصرين، وكان رئيس أمريكا هو نجم المؤتمر. فلولا دخول أمريكا الحرب، لما تمكن الحلفاء من هزيمة هتلر.

طالبت كل الدول بتعويضات من الألمان؛ فالدمار الذي أحدثه هتلر تجاوز كل خيال.

قال الرئيس الأمريكي: «أمامكم بقرة، إما لحمها أو لبنها؛ فلا ينفع الاثنان معًا».

وصدر في هذا المؤتمر قراران مدهشان: «لا طائفية، لا صراع على الحدود».

فقاموا بحشد جيش هائل من رجال الثقافة والإعلام والرياضة والفنون في كل أوروبا وأمريكا، يعزف الجميع لحنًا واحدًا: «التعددية والتسامح الديني.».

أصبح لدى كل الشعوب الأوروبية والأمريكية أفكار بديهية واحدة عن الإنسان، وحريته، وحقوقه، وبقية القيم الأوروبية الحديثة.

ولكن، للأسف، صدَّرَ الأوروبيون صديدهم الطائفي إلينا، فقاموا بإشعال كل الثغرات الدينية والطائفية في بلاد العرب.

ومنذ ذلك الحين، ونحن الذين نتقاتل ونتعارك ونتدابر من أجل الطائفة والدين والحدود.

ولهذا يُقال لعرب اليوم، كما قال الساحر:

«إذا أردتَ أن ينتشر السلام والإصلاح، فابدأ بالتخلي عن الطائفية والصراع على الحدود أولًا».

***

الدعاء المتكرر للبنت، أن يكتب لها الله الزواج، وكذلك نفس الدعاء للولد، وبمجرد الزفاف لا يقتحم أذن الزوجين سوى الدعاء المتطفل بالإنجاب، وأن يكون ذكرا.

وحين ينعم الله عليهما بولد، يكون الدعاء التالي أن يؤاخيه، أي يكون له أخ وليس أختًا!

هذه هي الطقوس الاجتماعية المصرية التي تغزو نفسية شبابنا بلا توقف؛ فليس للبنت والولد سوى الزواج.

ولو تأخر الأمر قليلاً، لكان القلق والاكتئاب، وفقدان الولد والبنت لاتزانهما النفسي؛ فعصا وعين المجتمع عليهما، ولا يسمح لهما بالتأخر. وهكذا تستمر دائرة إملاءات المجتمع على الزوجين بلا نهاية.

طقوس تتطفل على حياة الناس، وتثقب نفسياتهم وإيمانهم بالرزق؛ فتأخر الزواج عيب، وإنجاب الإناث فقط عيب، وعدم الإنجاب عيب. وهكذا تصبح كل التوقعات والتطفلات من المجتمع عبئًا على الناس.

كل هذه الأمور رزق ونصيب، ولكن هناك من لا يريد/تريد الزواج، سواء نفسيًا أو جسديًا.

كيف ينسجم هؤلاء في المجتمع دون تطفل؟

خيارات الإنسان وأقداره تخصه وحده. ولو سمح الإنسان بسكب فضلات المجتمع من الفضول والتطفل على حياته، لكان شقيًّا.

ولهذا يُقال لشباب اليوم، كما قال الساحر:

«إذا أردت السعادة، فتحرر من فضول وإملاءات المجتمع، وكن حرًّا في خياراتك».

***

عندما يضطرب مزاج الإنسان وتتوه عنه نفسه، يُسارع إلى الطبيب النفسي، ويخلص كل جهد الطبيب في البحث عن الدافع وراء هذا الاضطراب؛

هناك عقدة مختفية وراء ركام وكراكيب متناثرة في العقل الباطن.

وبعد أحاديث طويلة، وبوح، وتفتيش في مسالك النفس الخلفية والخفية، يكتشف العقدة.

وهذا الاكتشاف يكفي لضمان العلاج.

يشرحها للمريض، الذي ينتبه ويفهم، ثم يطرحها عن نفسه، ويحيا حرًّا، ويسترد نفسه وحياته الهانئة.

وهكذا دائمًا، هناك «كلمة سر»، لو نطق الإنسان بها أو عرفها، لفتحت الأبواب المغلقة.

كلمة سر يفهمها الحكيم ويهديها للناس، فيطرحوا عن كاهلهم هذه الأثقال بكلمة السر الشافية.

***

في كل قصة من هذه القصص، وفي كل مشهد من مشاهد الحياة، تَتكرَّر الحكمة نفسها بثوبٍ مختلف: لن يُغني عنك تغيير الشكل ما دمتَ لم تُبدِّل ما في قلبك، ولن تتحرّر من الخوف أو التعصّب أو الوهم، ما دمتَ تحملها في داخلك أينما حللت.

الفأر، والمجتمعات الطائفية، والمرأة التي تخشى السحر، والزوجان المحاصران بفضول الناس، والشاب المكسور من تطفّل التقاليد، والمريض الباحث عن كلمة سرّ... كلهم في الحقيقة يبحثون عن أمرٍ واحد:

التحرّر من الداخل.

فلا التغيير الخارجي، ولا الهجرة، ولا الزواج، ولا الدواء فقط يكفي.

التغيير يبدأ حين تجرؤ أن تواجه نفسك، أن تنظف مرآتك من الخداع، وتفتّش في داخلك لا خارجك.

وحينها فقط، لن تعود فأرًا مهما كان الجسد أو الواقع الذي تحيا فيه.

ولهذا، كما قال الساحر دائمًا:

"إذا أردت أن تتغيّر، فابدأ بقلبك أولًا."

سِكة أخرى للسلامة

لو نظرنا إلى غالب الناس وقد أثقلت حياتهم الأحلام والهموم معًا، لأدركنا أنَّ تشابك الأحلام والهموم قد كدّر حياتهم، وأفسد عليهم فرصة الاستمتاع بها.

عندما يكون الإنسان في وسط البحر، ويكافح لأن يعلو أنفه فوق الماء، أين أحلامه وأين همومه؟ تهرب! ولا يبقى سوى حلمٍ وحيدٍ وهمٍّ وحيدٍ: «البقاء حيًّا».

لا يفكر سوى في أنفاسه التي تحفظ الحياة، وفي تلك اللحظات يرى بوضوح ذنوبه الماضية بألوانها الحقيقية، ويتمنى لو تغيّر وأصلح، ويقول: «يا رب، توبة».

ولكنه حين ينجو، سريعًا ما تتبخر نيّته ويتلاشى جزعه، و«تعود ريما لعادتها القديمة»، فيسترد أثقال الأحلام والهموم على كتفه ـــ وهذا هو الإنسان!

***

شعوره بقيمة الحياة يتناسب عكسيًّا مع وفرة أسبابها ووسائل نعيمها، ويجهل أنَّ عين نفسه هي التي تنبعث منها مشاعر السعادة.

ولكن يندر من يُمهر الحياة ويفهمها، وأندر منه من يستحق وصف "السعيد".

ولهذا، هناك ميل عنيف بالإنسان إلى الارتداد لسابق عهده من الضعف، قبل أن يخطر بباله أن يستمع لداخله، ذلك الداخل الذي كان يُنصت له مع أنفاسه حين كاد أن يغرق، وحين خمدت أصوات طلب المتعة.

نحن العرب نعيش حاليًّا في مرحلة طموحٍ واحد: «البقاء حيًّا».
فمن منَّا يستطيع أن يفكر في الغد بلا صخبٍ، بلا ضبابٍ وعواصف وسحبٍ وغيوم؟ من منَّا يشعر أن هناك غدًا أصلًا؟
وقبل أن يجيب أحد، سأجيب:
هناك غدٌ سعيد وضفَّةٌ أخرى نقترب منها، بيننا وبينها ضبابٌ وأمواجٌ ورياحٌ وظلام، ولكنها قريبةٌ جدًّا، تكاد تطولها أيدينا.
وسنعبر قريبًا جميعًا في سلام.
وليس الهم في العبور والوصول إلى الشط الجديد، بل في الضعف البشري، في الإنسان الذي ما سُمِّي إنسانًا إلا لنسيانه.
فبمجرد الصعود إلى الضفة الأخرى، والنجاة، والشروع في حياة جديدة، نعود ونحني ظهورنا لنتناول ثانيةً أحلامَنا الطائشة وهمومَنا الطاغية، ونحيا كما كنا نحيا من قبل، في ضلالٍ وجهلٍ وسذاجةٍ لا متناهية.
المشكلة ليست في فرصةٍ جديدة للسعادة، بل في أن نلتقطها بنفس العقلية والنفسية التي أشقتنا بالأمس.

***

وهذا المشهد الرمزي نراه مجسَّدًا بعبقرية في مسرحية "سكة السلامة" لسعد الدين وهبة، حيث تتجلّى رحلة الإنسان من الغفلة إلى الوعي، ومن الخداع إلى الصدق، حين يُلقى فجأة في صحراء وجوده العارية.
في البداية، ظنَّ ركاب الأتوبيس أنه مجرد تأخيرٍ بسيط، فرصةٌ للتعارف والترفيه والنظر إلى السماء والنجوم.

قام كل رجلٍ وامرأةٍ باستئناف الدور الذي يتقمصه في حياته؛ تناثرت بينهم المجاملة والتجمّل والتنافس على ميل الفتاة الجميلة اللعوب، وتظاهرت الفنانة «سوسو» بأنها تعيش تجربة فنية وإنسانية رقيقة، ولم تكن جادّة فيما تقول، بل أرادت أن توهمهم برُقيّها الفني والشعوري، ولم تكن تدرك أن الكل فاهم، ولكنهم يتظاهرون بالتصديق طمعًا فيها.

***

انطلقت شهوات الجميع على حريتها فترةً من الزمن تحت وهم الأمان، فمرور أي حافلة لإنقاذهم أمرٌ متوقَّع.

لكن الحقيقة الصادمة جاءت: إنهم تائهون في الصحراء، على مسافةٍ زمنيةٍ قريبةٍ من الموت عطشًا، ولا أملَ في النجدة.

فانهار الجميع، وتناصحوا بأن يحفر كلٌّ منهم حفرةً لنفسه، ليدفنه الأحياء حين يموت.

وهناك بدأ الاعتراف:

على كل واحد أن يُعرِّف نفسه تعريفًا صادقًا، مغايرًا لما قدّمه أولًا من كذبٍ وتجمّلٍ ورياء.

وكان مشهد سميحة أيوب حين نثرت الكروت التي جمعتها من عشّاقها مشهدًا عالميًّا؛ فضحتهم جميعًا، فتعرت النفوس، وتكشفت الأقنعة، واعترف الجميع بضعفهم وكذبهم وجرائمهم، وأعلنوا التوبة.

***

ثم تحدث المعجزة: جاءت النجدة!

ما إن لمحوا الأمل حتى ارتدى كلّ منهم ثيابه القديمة في ثانية، ولملمت «سوسو» كروت العشاق التي ألقتها على الرمال،

وصعد الجميع إلى الأتوبيس متوجهين إلى الوجهة نفسها التي تابوا عنها منذ دقائق.

هذا المشهد بالضبط هو مشهد الإنسان حين يغطس بجسده في الماء، ويجتهد أن يرفع أنفه لينجو، ثم يقول: «يا رب، توبة وفرصة جديدة!»

ولكنه ما إن ينجو حتى يعود كما كان، كما فعل قوم موسى حين عبروا البحر، فما إن جفّت الرمال تحت أقدامهم حتى نسوا الغرق وسجدوا لعجلٍ من ذهب.

***

ومع ذلك، أرى أن غياب «الناجي الواعي» في المسرحية كان ثغرةً فنيةً وإنسانية؛

فالفن الذي يُسقط الجميع في هاوية واحدة قد يَهزم الوعي بدل أن يوقظه.

نحن في حاجة إلى نموذجٍ يقاوم التيار، يُظهر أنَّ اليقظة ممكنة ولو في لحظةٍ واحدة، لأنّ فكرة الهبوط الجماعي تُغري الناس بالاستسلام وتبرّر الغفلة العامة.

والمبدع الحقيقي لا يكتفي بعرض المأساة، بل يزرع بين ركامها بذرة خلاصٍ صغيرة، ولو كانت صامتة.

***

في مسرحية «سكة السلامة»، قام كل فرد بالاعتراف بذنوبه ثم إعلان التوبة أمام الجميع، وكانت تلك الفقرة شجية، ونال كل واحد منهم تصفيقًا حارًّا، وسالت الدموع على خدود المشاهدين، وربما سرت رعشة في أجسادهم، فالاعتراف

والتوبة تجربة، أو أمنية شخصية لكل إنسان يريد أن يحرّر ضميره.

ثم جاءت النجدة، وخيّرتهم بين أن يتجهوا إلى الإسكندرية أو إلى القاهرة، وقد كان مقتضى التوبة أن يعودوا إلى القاهرة بعد أن تخلّوا عن شيطانهم.

وفي لحظةٍ ارتخت فيها مشاعر الخطر، قرّر الجميع أن يستمرّوا في الرحلة إلى الإسكندرية.

وكان أكثر المشاهد تأثيرًا توبة «سوسو»، وأيضًا التقاطها للكروت التي ألقتها باحتقارٍ على الأرض، فجمعتها واتجهت مع الجميع نحو وجهة الإسكندرية.

***

في هذا المشهد أضاع المؤلف فرصةً ذهبيةً لبثّ الأمل.

فلكل قصةٍ وروايةٍ ومسرحيةٍ قيمةٌ تبثّها في الناس، والقيمة التي أهدتها هذه المسرحية للناس كانت:

«لا علاج لتمرّد الإنسان وخضوعه لشهواته وضعفه.»

فالكل حين اقتربت سَكْرة الموت أصبحوا حكماء وفصحاء وسكبوا الدموع وتابوا، وحين جاءت النجدة، «رجعت ريما لعادتها القديمة».

وهذا يعني أن الإنسانية لا فائدة منها.

***

تخيّلتُ لو أن «سعد الدين وهبة» قام بابتكار المشهد الآتي:

«يرتدّ الجميع إلى سابق عهدهم وينصرفوا للسفر إلى الإسكندرية، ثم تأتي سوسو وتنظر إلى الأوراق على الأرض

وهي مترددة، ويقف المشاهدون حائرين لا يعرفون قرارها، ويتمنّون في داخلهم أمنيةً لنهايةٍ يفضلونها.

ترفع سوسو رأسها في كبرياء، وتعطي ظهرها للأوراق على الأرض، وتتوجّه إلى المنقذ ثم تقول له:

«سأعود إلى القاهرة».

***

ولو تأملنا هذه النهاية البديلة لوجدنا فيها رسالتين بالغتي الأثر:

الأولى: الأمل في الإنسان، فهناك دائمًا شخصٌ تائب، قوي، ومقاوم.

الثانية: الاعتذار للمرأة، فهي في أغلب قصصنا ضعيفة، وفريسة، ومغلوب على أمرها، وأداة فتنة.

فتكون تلك النهاية مثالًا لامرأةٍ أقوى من الجميع، رجالًا ونساءً.

ويخرج المشاهد من المسرحية، ويتأرجح في خياله وقيمه العليا ما فعلته «سوسو»؛ الوحيدة التي صدقت توبتها وتعلّمت الدرس.

***

الإنسان لا يخاف من الله كما يخاف من البشر، لأن الخطر الإلهي لا يتكرّر أمام حواسه.

من يقرصه الثعبان يتذكر اللدغة كلّما رأى الحبل.

لكن من ينجو من قدرٍ ميتافيزيقي - مرض، حادث، غرق - لا يرى القدر بعد ذلك في وجهٍ يمكنه أن يتجنبه، فتتلاشى التجربة في غموضها.

أقدار حافة الخطر تُنسى سريعًا لأنها بلا علامةٍ بشريةٍ تنقش الذاكرة، بينما التنمّر أو الظلم أو الخيانة تبقى، لأن صاحبها ترك أثرًا حسيًا ووجهًا يذكّرنا بالدرس.

***

في الحياة، كما في الروايات والسينما، نرى السياسي الذي يُسجن ظلمًا فيخرج محطمًا لا يقترب من السياسة أبدًا، والفنان الذي يُهاجَم فيعتزل موهبته، والإنسان الذي يُؤذى في الخير فينقلب إلى نقيضه.

كأننا نفعل عكس ما يجب!

فحين يدفع الإنسان ضريبة الخير، عليه أن يخرج من التجربة أصلب وأصدق، لا أكثر انسحابًا وانكسارًا.

ومن أصابه الأذى بذنوبه، عليه أن يتوب ويعود أنقى، لا أن يزداد غفلة.

هذا هو الطبيعي، وهذه هي التربية التي ينبغي أن يغرسها الفن في النفس؛ أن يجعل التجربة نارًا تصهر الإنسان لتقوّيه، لا لتذيبه.

لكن الفن المعاصر، مثل واقعنا، يزرع النماذج المكسورة، ويجعل الهبوط والانحدار زلقًا وأملس، كأنه هو القدر الوحيد الممكن.

زر المعرفة

في واقع تتكدّس فيه الشعارات وتضمحلّ فيه الحلول، تبقى المعرفة الحقيقية هي الزرّ الصغير القادر على فتح أبواب النجاة، لكنها معرفة «مرفوضة، أو غريبة، أو ضائعة» وسط صراخ الجموع التي تقبض على معرفة قليلة ومتوهمة.

***

بعض الأفراد مسجونون في غرفة مغلقة بلا منافذ، ومن ثقوب عديدة يتسرّب ماء وبخار، يتجمّع الماء ويتصاعد، ينتشر البخار ويتراجع الأكسجين، ويلوح خطر الغرق والاختناق، وساعة الزمن تدق بسرعة وتُعلن اقتراب النهاية. وأمامهم أبواب ونوافذ حديدية موصدة، يبرز من تلك الأبواب والنوافذ بروزات أشبه بالمقابض أو العجلات التي يمكن تحريكها أو إدارتها، وينتشر كل فرد أمام باب أو نافذة ويُعمل قوته في إدارة العجلات وثني المقابض، عسى أن يُفتح باب أو نافذة. وتُستنزف قواهم في هذا المجهود البدني، بينما يرتفع الماء وينتشر البخار ويتكثّف، وتغمرهم مشاعر البلل والاختناق. يمرّ الوقت ولا يخطر ببالهم سوى التغلب على المقابض والعجلات، فهما الأمل الوحيد في الخروج والنجاة.

تخيّل أن في الغرفة عشرة أشخاص... مئة... مليون... ملايين!

هل سيُحدث العدد فرقًا، ما دام الجميع منشغلًا بالمقابض والعجلات نفسها؟

لو كان في هؤلاء الملايين شخصٌ واحد يمتلك معلومة أنّ في كل باب ونافذة زرًّا صغيرًا جدًّا، لا يكاد يُرى، لو ضغط عليه بهدوء لفتح أحد الأبواب أو النوافذ!

ألا نعترف وندرك أن هذا الواحد الذي يمتلك المعرفة قد أنقذ الملايين وتفوّق عليهم، ولا يمكن الاستغناء عنه؟

المشكلة في الشعب المصري وربما بقية الشعوب العربية أنهم يشتغلون على المقابض والعجلات كأمل في حلٍّ سحري لكل مشاكلهم المزمنة والمؤلمة واليائسة.

***

لقد أصبحت المقابض والعجلات، في وعينا الجمعي، رموزًا للدين والسياسة، أدوات يتوهّم الناس أنها وحدها مفاتيح الخلاص.

لا حلّ عند ملايين المصريين والعرب إلا عصا السياسة والدين السحرية: تغيير سياسي ثم تفتح أبواب الجنة... "يسقط يسقط..."، ولا توجد خطة لما بعد السقوط.

وسائل دينية مثالية وسطحية، ثم تهطل السماء بالخير مدرارًا وترتفع رايات الأستاذية.

والماء يرتفع، والبخار يتكثف، وما زالت العقلية كما هي، تزداد جهلًا وغلظة وغيبة عن الواقع.

لا فرق بين عامي ومتعلم ومثقف... فسقف المعرفة والوعي عندنا منخفض جدًّا.

فقط الغرور ببعض القراءات والشهادات والمعلومات الملونة والمبتورة.

***

وحين نشير إلى زرٍّ من عشرات الأزرار التي ترفع الكرب وتلطف الألم وتيسّر الحياة، يستغرب وينكر الناس أن هذا الزرّ الصغير والضئيل يفتح هذا الباب الضخم.

هذه هي قصة المصريين دون نقص أو زيادة.

يثقون في الطبيب حين يفتح جسدهم ويستسلمون له بإيمان عميق بالقدر.

وقد كان يُسمّى الطبيب قديمًا بـ"الحكيم"، ولكن حكيم اليوم الذي وهب عمره وجهده للمعرفة لا وزن له ولا ثقة فيه.

فالثقة في العمامة والجُبّة... والأوراق الصفراء.

لقد وصلنا إلى مرحلة لا يُرجى فيها سوى البقاء على قيد الحياة...

لكن حتى هذا الأمل لم يعُد يحمينا من خطر الانقراض.

وربما، فقط ربما، لو التفت أحدهم لذلك الزرّ الصغير...

***

في الملاهي يدخل الجمهور إلى بيت جحا، يتوه الجميع في المتاهة. كلهم يضحك ويتوقع المرح ثم الخروج بأمان.

لو تخيلنا متاهة كبرى تسع شعبًا من عشرات ومئات الملايين، الكل يتحرك في كل اتجاه باحثًا عن مخرج، ولا أمل.

ماذا لو قرّر إنسان أن يبادر بفعل مختلف؟

فحاول الارتفاع بالتسلق إلى أعلى.

الصعود شاق وصعب ويتطلب كفاحًا متواصلًا وإصرارًا على الوصول، حتى يصل إلى أعلى ويرتفع بحيث يستطيع أن يحظى برؤية شاملة لمسالك المتاهة كلها.

فينادي من أعلى على الملايين، ويُلقّنهم المسار الذي يجب أن يسيروا فيه حتى يخرج الجميع من المتاهة.

مرةً ثانية، لا ينفع الناس كثرتهم، ولا يُرشد الملايين إلا رُشد واحدٍ منهم يمتلك معرفة، ويشتغل عملًا يزهد فيه كل الناس، فيكون رسول هدايتهم ونجاتهم.

وماذا لو سبق للصعود شخص ماكر وبلا ضمير؟

في هذه الحالة سيكون غير أمين ويُضلهم ويُضاعف شقاءهم ويُطيل ضلالهم.

لذلك، كلما تطوّع بالصعود عدد أكبر ممن يُعرفون بضميرهم ونزاهتهم، كلما كان ذلك في صالح نجاة الشعوب ورشدهم.

***

الشعوب التائهة والشقيّة هي التي يقود قاطرتها نخبة ضعيفة أو شريرة.

ولا بدّ للشعوب من نخبة أمينة تقودها، فالنخبة هي ذكاء وحكمة وضمير وعاطفة الشعوب، وهي حجر الزاوية في تقدّمها أو تأخرها، سعادتها أو شقائها.

والحكومات الراشدة هي التي تبحث عن الموهوبين والممتازين ممن يصلحون ليكونوا نخبة.

بينما الحكومات الضالة المتخلفة هي التي تُقدّم أهل الثقة على أهل الكفاءة، وهذه معادلة ظالمة وبسببها تتوه الشعوب.

***

حين ينتشر مرض في المدينة، تُسارع الدولة بطلب المواطنين الذهاب إلى الوحدات الصحية، ويتناول كل فرد أقراصًا أو حقنة وقائية.

يخضع الجميع بسلام وثقة لنداء الدولة، فالنخبة الطبية في البلاد قامت بدراسة المرض واقتراح العلاج.

ولكن هناك أحوال خطيرة لا تكون فيها الاستجابة ولا الثقة في النخبة، حين تكون المشاعر والعاطفة قوية وضالة وجاهلة،

وحين ترتفع رايات وشعارات برّاقة وربما مقدسة، تشعل حماسة الناس على حساب الحكمة والخبرة.

***

في ثورة عرابي (1879–1882)، تم عزل رياض باشا، وكُلّف شريف باشا بتشكيل الوزارة.

وكان رجلًا كريمًا مشهودًا له بالوطنية والاستقامة.

فألّف وزارته في 14 سبتمبر 1881م، وتم وضع دستور للبلاد، ونجح في الانتهاء منه وعرضه على مجلس النواب الذي أقرّ معظم مواده.

وكان بالوزارة وزير إنجليزي وآخر فرنسي لمراقبة الميزانية، لأن الخديوي إسماعيل تسبب في ديون هائلة على مصر.

وهنا ثارت أزمة كبيرة نتجت عن الانفعال الثوري الذي دائمًا ما يُقلب السفينة ويُغرقها.

تصارعت فكرتان:

- **الأولى**: لعرابي ومحمود سامي البارودي وبقية الثائرين، الذين رفضوا تعيين الوزيرين الأجنبيين بحجة أنه يمسّ الاستقلال والكرامة الوطنية.
- **الثانية**: لشريف باشا، الذي خشي أن يؤدي القرار إلى تبرير احتلال مصر. ورأى أنه يكفي المصريين الفوز بمجلس نيابي حرٍّ منتخب، وإقرار الدستور، ليتمكن المجلس من التحكم في الإنفاق حتى تُسدّد الديون، ثم لا يتبقى مبرر لوجود الوزيرين.

ولكن، كما يحدث في كل الثورات، انتصر الرأي المتطرّف والمتعجّل، وانقلب الثوار على النخبة الحكيمة التي تمثّلت في شريف باشا، وتمردوا عليه وعزلوه.

واحتلت إنجلترا مصر.

***

النخبة تعرض الحلول "باردة" ولا تمزجها بالعاطفة والأحاسيس، لكن الجماهير قليلة الوعي، تتحمّس للقرارات المثيرة والعجولة.

ولهذا، فالشعوب تُصبح عارية حين تفقد النخبة، أو ترفض تلقّي الحكمة منها.

***

الإجابات الصغيرة

غدًا امتحان الثانوية العامة، يا إلهي! لم أفتح الكتاب قط.

لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب، سأذاكر اليوم كله وحتى طلوع الفجر.

جلست على مكتبي، وضوء المصباح الخافت يلقي بظلاله على الأوراق المتناثرة، والساعة تدق بلا رحمة.

بضع أكواب من القهوة تكفي لتبقيني مستيقظًا، لكن قلبي يرفرف من التوتر، وعيناي زائغتان، والعرق يتصبب من جبهتي رغم برودة الليل.

رآني أبي وأنا أحمل فنجاني، مرّر أصابعه على ذقنه وقال ساخرًا:

– «هذه ذقني لو فلحت.»

أحنيت رأسي، وانسحبت إلى غرفتي، كأن الكلمات صفعةٌ خفية على وجه قلقي.

أمسكت بالكتاب، لكن الأفكار راحت تتسلل إليّ: مكالمة مهمة، نظرة من النافذة، استراحة قصيرة، طلب طعام من أمي... وهكذا مرّ الوقت.

لم أنم، ولم أذاكر، وقلبي يئنّ تحت وطأة الوقت الضائع.

شعرت بانقباض في صدري، وضيق يتزايد مع كل دقيقة.

دخلت الامتحان وأمسكت الورقة، لكن الوقت يمضي، والورقة لا تزال بيضاء.

فجأة وجدت نفسي خارج القاعة: أتناول شرابًا، أضحك مع زملاء، أشاهد فيلمًا في السينما، ثم أتابع مباراة لفريقي المفضل.

تساءلت بدهشة:

– كيف سمح لي المراقبون بالخروج؟ ولماذا لم أكتب شيئًا؟

الاختناق يعود، جسدي يرتجف، وقلبي كأنما مكبّل، وآلام الموت تحيط بي.

سمعت صوتًا يناديني:

– «جدي! ألم تستيقظ بعد؟»

فتحت عيني لأرى حفيدي واقفًا أمامي.

يا إلهي! كان كابوسًا جديدًا من تلك الكوابيس القديمة.

ها أنا، وقد تجاوزت الستين، وما زال ذاك الحلم يطاردني من حين لآخر.

صار يتكرر كثيرًا مؤخرًا، حتى بات النوم عبئًا، يخفي في طياته همًّا مقيمًا.

قال لي الطبيب النفسي بعد جلسات طويلة ومكلفة:

– «أنت مصاب بـ"إحساس الفوت". تشعر بأن حياتك مضت في الإجابات الصغيرة.»

شرح كثيرًا، ولم أقتنع، لكن كلماته نبّهتني إلى أنني، منذ تقاعدي، أصبحت معزولًا.

انتهى عملي، وتحررت من المسؤوليات بعد أن تزوج أبنائي وبناتي، وصرت أراقب الحياة تمرّ من نافذتي بلا مشاركة.

اتبعت ما يفعله الآخرون: أراقب الوقت وهو يمر، أعدّ الأيام، وأتساءل عن جدوى ما تبقى.

شعرت بما يشعر به كثير من الآباء حين يصلون إلى هذه المرحلة، بينما الأمهات لا يتقاعدن، ويظللن مركز حياة أبنائهن.

تملكني سؤال مرير:

– ماذا أفعل الآن؟

بدا لي وكأن كتاب حياتي قد أُغلق مبكرًا، وما تبقى هو مجرد انتظار للصفحات الباقية من هذا الكتاب.

مثل هذا الانتظار لا يجلب سوى الوحدة والبطالة والخذلان.

سمعت نصائح لا تُعد، لكن نصيحة واحدة فقط ظلت عالقة في ذهني.

قالها رجل غريب كان يجلس بجواري في مقهى، بعدما سمع حديثي مع صديقي:

- «ستجد ما فقدته من مشاعر إذا نجحت في إنباتها في الآخرين.

إن كنت سببًا في سعادة أحد، ستكون سعيدًا.

وإن آنستَ أحدًا، لن تشعر بالوحدة.

وإن ساعدتَ أحدًا على الإنجاز، فستشعر بالإنجاز.

ما تفتقده في نفسك، ازرعه في غيرك... سيعود إليك مضاعفًا، شافيًا، ومرويًا لظمئك.»

جلست أستمع إلى ضجيج المقهى: صوت فناجين القهوة، همس الزوار، وروائح البن الطازج، وبدأت كلمات الرجل تتغلغل في أعماقي.

بعد أيام، وأنا أمرّ في أحد شوارع المدينة، رأيت ابن أحد الجيران يعمل في متجر، يبيع بضاعة بسيطة.

بدا ذكيًّا، مشعًا بحيوية رغم التعب.

تحدثت معه، وعلمت أنه يعمل عشر ساعات يوميًا مقابل أجر زهيد.

قلت له مبتسمًا:

– «لقد ضعف بصري، هل يمكنك أن تأتي يوميًا لتقرأ لي ثلاث ساعات؟ سأعطيك الأجر نفسه.»

ولم أكن ضعيف البصر، لكن الفكرة راقت لي فجأة، وأحسست أن هذه التجربة قد تفتح نافذة جديدة في حياتي.

فرح الفتى، وبدأ يزورني كل يوم.

يقرأ لي ما أختاره من قصص وكتب تناسب عمره، وأنا أحرص على أن أجذب خياله وأستفزه بأسئلتي.

كنا نناقش ما نقرأ، وشيئًا فشيئًا بدأ ذهنه يتفتح، وعيه يزدهر، وخياله يركض في آفاق جديدة.

كان يعود إليّ كل يوم محمّلًا بأسئلة وتصورات، وعيناه تبرقان بفضول جديد.

كأن بابًا في ذهنه قد انفتح، وكأن صداقة نشأت بينه وبين الكلمة... وبيننا.

لم يكن المبلغ الذي أدفعه له كبيرًا، لكنه كان أقل كثيرًا مما أدفعه للطبيب.

مع الوقت، شعرت أنني وجدت طريق الشفاء الحقيقي.

تضاعف عدد أصدقائي، وتضاعف عدد أصدقاء الكتاب.

ولأول مرة منذ زمن طويل، شعرت أنني لا أعيش على هامش الحياة، بل أكتب فيها الإجابات الكبيرة، وأزرع في الآخرين ما أفتقده في نفسي.

وأدركت أن الحياة الحقيقية تبدأ حين نشاركها، حين نصنع السعادة لأحد، حين نغرس الأمل في قلب آخر.

***

الإله المستتر

في المدرّج الكبير بالجامعة، الذي غصَّ بالطلبة حتى آخر مقعد، جلس الجميع ولأول مرة في صفّين متقابلين: البنات إلى اليمين، والبنون إلى اليسار.

جاء هذا الترتيب الغريب بطلبٍ من البروفيسور المصري العائد من جامعة هارفارد، بعد أعوامٍ طويلة من التدريس هناك. عمّ الحماس أرجاء الكلية حين أُعلن أنه سيستقر في مصر أخيرًا، وأنه سيبدأ بتدريس مادة علم الاجتماع هذا الفصل. كانت تلك أول محاضرة له، وكانت العيون تتعلّق بباب القاعة في ترقّبٍ مشوبٍ بالفضول.

دخل البروفيسور بخطواتٍ ثابتة تشي بثقة العارف، وألقى التحية وسط تصفيقٍ متحمس تلاه صمتٌ مهيب. مسح بعينيه المدرّجات ليتأكّد من الترتيب الذي طلبه، ثم قال بنبرةٍ هادئةٍ حازمة:

«أظنّ أن أول سؤالٍ يدور في أذهانكم الآن هو: لماذا طلبتُ فصل البنات عن البنين في أول محاضرة لي؟»

ابتسم ابتسامة خفيفة، ثم تابع:

«الجواب بسيط... سأجري أثناء الشرح استطلاعاتٍ للرأي، ويهمّني أن أميّز مصدر الآراء: أهي من البنات أم من البنين؟ هذا التمييز يمنحنا مؤشراتٍ فكريةً أدقّ أثناء النقاش.»

***

أضاف البروفيسور بابتسامةٍ صغيرة:

«طلبتُ منكم مشاهدة فيلمٍ قصير قبل المحاضرة. قصته عن شابٍ مستهترٍ كثير العلاقات النسائية يدعى «عادل»، وفتاةٍ مرحةٍ تُدعى «نور»، تشبهه في سلوكه. قرّر عادل الزواج والتوبة، فاقترحت عليه نور أن يتوبا معًا ويتزوجا، لكنه رفض قائلًا إنه يريد فتاة "لم يمسّها أحد قبله". تزوّج هو، وبقيت هي وحيدة، فلن يصدق أحد توبتها التي أعلنتها.»

رفع البروفيسور رأسه نحو الطلبة وقال:

«من يرغب في تمثيل دور «عادل؟»

رفع بعض الشباب أيديهم فاختار أحدهم. ثم طلب من البنات ترشيح من تمثّل «نور»، فلم ترفع واحدةٌ يدها. ابتسم البروفيسور وسأل:

«ولِمَ الإحجام؟»

قالت إحداهن بخجل:

«أخشى أن يلتصق بي الاسم ويُستخدم للسخرية أو التشهير.»

كتب البروفيسور على السبورة كلمة «الأول»

ثم قال:

«لو تقدّم «عادل» لأحداكنّ، وهو شابٌ تاب توبةً صادقة، هل تقبلنه؟»

رفعت أغلب البنات أيديهن بالموافقة.

قالت إحداهن:

«لقد تاب وسيكون صالحًا، ومن ذاق الحرام عرف مرارته، وتجربته تجعله أقرب إلى الصواب.»

بينما قالت أخرى من الأقلية الرافضة:

«ربما يعود إلى ماضيه، وهذه مغامرة قاسية على أي فتاة.»

ثم سأل البروفيسور البنين، فوافق أغلبهم دون تردد.

ابتسم ولم يعلّق، ثم قال:

«إذن أنتم جميعًا غفرتم له... ولا أحد اعترض على زواجه.»

كتب البروفيسور على السبورة «الثاني»

***

ثم التفت إلى الطلبة وقال بصوتٍ ثابتٍ:

«لو أن الشخصية الثانية «نور» - الفتاة التي أخطأت ثم تابت مثل «عادل» - فهل تقبلون أن تكون زوجةً لأخيكم؟ أو أن تدخل بيتكم كقريبةٍ أو صديقة؟»

ساد الصمت، وتبادلت الوجوه نظراتٍ متوترة. كانت الإجابات هذه المرة قاطعة وصادمة: جميع البنات رفضن، وكذلك البنون.

قالت إحدى الطالبات من الرافضات بصوتٍ يحمل شيئًا من المرارة:

«المجتمع لن يغفر لها، وإن تابت. زواجها من أخي سيلطّخ سمعته وسمعتي، ويجلب العار للأسرة.»

وأضافت، بنبرةٍ متردّدة:

«العدل يقتضي أن نعاملها كما عاملنا عادل، لكن ذلك يبدو مثاليًّا وبعيدًا عن واقع الناس.»

أما الطلاب، فكانت إجابتهم أشدّ حدّة. قال أحدهم ساخرًا:

«زوجها سيكون حديث الناس كلهم، كيف يعيش مع امرأةٍ يعرف الجميع ماضيها؟»

عندها رفع البروفيسور نظره عن السبورة ونظر إليهم طويلاً قبل أن يقول بنبرةٍ هادئةٍ حازمة:

«إذن صدّقتم توبة الرجل... وكفّرتم المرأة... مع أن ذنبهما واحد.»

كتب البروفيسور على السبورة «الثالث».

ثم قال بنبرةٍ هادئةٍ كمن يُلقي حجراً في بحيرةٍ ساكنة:

«سؤالٌ آخر: بالنسبة للأولاد، لو خُيّرتم بين الزواج من بكرٍ، أو مطلّقةٍ، أو أرملةٍ... فمَن تختارون؟، وبالنسبة للبنات، ماذا تفضلون لأخيكم حين يتزوج؟»

لم يتردّد أغلب الحاضرين من الطالبات والطلاب في رفع أيديهم نحو الخيار الأول.

قال أحد الطلبة بثقةٍ ظاهرة:

«البكر، طبعًا. فهي في نظر الناس أنقى وأصفى وأخفّ ظلًّا.»

دوّن البروفيسور النتيجة في صمتٍ قصير، ثم كتب رقمًا جديدًا: «الرابع».

قال بنبرةٍ تجمع بين السخرية والفضول:

«تخيّلوا شابًا عربيًا يعيش في أوروبا أو أمريكا، أحبّ فتاةً أجنبية، وأرادت أن تُسلِم لتتزوجه... هل يقبل بها زوجة؟»

ارتفعت الأيدي بالموافقة دون تردّد، وكأن الإجابة لا تحتاج تفكيرًا.

عندها ارتسمت على وجه البروفيسور ابتسامة حادّة، وقال بصوتٍ يحمل وقع المفارقة:

«لكنكم تعلمون أن الفتاة الغربية قد خاضت قبل إسلامها علاقاتٍ كثيرة... فكيف قبلتموها زوجة، ورفضتم نورًا التي لا يرقى خطؤها معشار العشر مما غفرتموه لتلك الأجنبية؟!»

خيم الصمت فجأة على المدرّج. تجمّد الطلبة في أماكنهم، وتبادل بعضهم نظراتٍ حائرة، فيما انطلقت همهماتٌ خافتة من الصفوف الخلفية كأنها محاولة هروبٍ من حرج السؤال.

***

وقف البروفيسور أمام السبورة التي ازدحمت بالأرقام والنتائج، ثم أدار جسده نحو الطلبة ببطءٍ كمن يستعدّ لقول الحقيقة الأخيرة.

قال بصوتٍ متمهّلٍ عميق النغمة:

«أتدرون ما الفارق بين عادلٍ ونور؟ ليس الذنب، ولا التوبة... بل المجتمع.

المجتمع هو الإله المستتر الذي نعبده دون صلاةٍ أو سجود.

هو من يمنح الخطأ غفرانه هنا، ويحرمه هناك. هو الذي يضع المقاييس، ويغيّر الموازين حسب أهوائه، ثم يُقنعنا أننا نحن من اخترنا.»

توقّف لحظة، وألقى نظرة طويلة على الصفوف الصامتة، ثم تابع:

«احذروا ازدواج المعايير، واحذروا أن تجعلوا القيم خاضعةً لرضا الناس.

الذهب يُوزَن بالميزان نفسه في الشرق والغرب،

فابحثوا أنتم عن المسطرة التي تقيسون بها أرواحكم، لا أفعال الآخرين.»

ثم نظر إلى الطالبات نظرةً امتزج فيها العتاب بالحنان وقال بنبرةٍ خافتةٍ آسفة:

«لقد قسوتنّ على أنفسكنّ قبل أن يقسو عليكنّ أحد... جلدتنّ ذاتكنّ بأيديكنّ، ثم أحكمتنّ القيدَ على أرواحكنّ طوعًا.»

***

في الخارج، كانت الساحة الجامعية تضجّ بأصوات الطلبة، كلٌّ يروي للآخر ما جرى في المحاضرة التي لن تُنسى.

لكن أحدًا لم يلتفت إلى أن البروفيسور ما زال داخل القاعة.

كان يجمع أوراقه ببطءٍ يشبه تأملًا، ثم رفع رأسه نحو المقاعد الخالية كمن يخاطب أطيافًا غادرت لتوّها.

تمتم بصوتٍ بالكاد يُسمَع:

«ما أسهل أن نكشف تناقض الآخرين... وما أعسر أن نرى تناقضنا نحن.»

أطفأ الأنوار، وتوقّف أمام المرآة الصغيرة قرب الباب. حدّق في صورته طويلاً، ثم همس بنغمةٍ متعبةٍ كأنها اعترافٌ متأخر:

«ترى... هل أُدرّس لأفهمهم؟ أم لأفهم نفسي؟»

خرج ببطءٍ وأغلق الباب خلفه.

«وفي الخارج، كانت نور تمشي نحو بيتها دون نظارتها القديمة، بخطًى ثابتة لا تلتفت.

في عينيها ضوءٌ جديد، يشبه الصباح بعد ليلٍ طويل.

لم تعد تبحث عمّن يغفر لها... فقد غفرت هي لنفسها أولًا.»

***

الشفاء من فيروس الدروشة

في صباحٍ رماديٍّ يعلوه صمتٌ غريب، اجتمع مجلس الوزراء بكامل هيئته في القاعة الكبرى، القاعة التي طالما شهدت قراراتٍ تُغيّر مصائر الملايين.

لكن هذه المرة لم يكن الأمر اجتماعًا عاديًا؛ فالدعوة طارئة، والعناوين غامضة، والهمس الذي سبق الجلسة أثقل من الهواء.

حتى الممرّات المؤدية إلى القاعة بدت متوترة، كأن الجدران نفسها تتحسس وقع الخطى.

على الشاشة الضخمة في مقدمة القاعة، ظهر الرئيس ببزّته الرمادية، وجهه جامد، وصوته حازم:

"ستديرون النقاش وحدكم، أنا أتابع فقط. تذكّروا أن ما نواجهه ليس أزمةً اقتصادية ولا سياسية، بل وباء... غامضًا."

ساد الصمت، وكأن الجميع يخشى أن يتنفس كي لا يوقظ الشبح الذي تحدّث عنه الرئيس.

تنحنح رئيس الوزراء قليلًا، ونظر إلى الوجوه المصفوفة أمامه، ثم قال بصوتٍ منخفض:

«لقد تلقّينا تقارير من كافة الوزارات تشير إلى حالةٍ غير مسبوقة: تراجعٌ شامل في التفاعل الشعبي مع الإعلام، والرياضة، والدين، بل ومع السلطة ذاتها. كأنّ هناك فيروسًا أصاب الوعي الجمعي للشعب... وجعله ينسحب بهدوء من كل ساحات السيطرة.»

ثم أشار إلى وزير الإعلام ليتحدث.

نهض وزير الإعلام، وبدا عليه الارتباك وهو يرتّب أوراقه بتوتر:

«منذ أشهر، نرصد تراجعًا حادًا في نسب المشاهدة. القنوات الرسمية وشبه الرسمية فقدت جمهورها، والبرامج الحوارية تُبث في فراغ، حتى الأفلام والمسلسلات لا يتفاعل معها أحد.

الغريب أن المتابعة من الخارج لم تتأثر، كأن المقاطعة موجَّهة ضدنا نحن فقط.

إنه ليس عزوفًا طبيعيًا، بل أشبه بعقابٍ صامت، أو تمرّدٍ هادئ لا يُرفع فيه شعار.»

رفع نظارته ومسح عرقه ببطء، ثم قال بقلقٍ ظاهر:

«إذا انتبهت أجهزة الاستخبارات الأجنبية لهذا التحول، فستعتبره مؤشرًا على ثورة وعي، وستتعامل معنا على أننا على حافة انفجارٍ غير محسوب.»

تحرّك وزير الشباب والرياضة في مقعده قبل أن يتحدث، وهو المعروف بخطبه المتفائلة، لكنه بدا اليوم مكسورًا:

«أقمنا مباريات لا تُفوّت، مباريات قمة وبطولات دولية، ومع ذلك فالمدرجات شبه خالية.

حتى المشجعون في البيوت لم يعودوا يهتمون. لم نعد نسمع الشتائم بين أنصار الفرق، ولا نرى التنافس الإلكتروني المعتاد على المنصات.

لقد اختفى الهوس الكروي، وكأن الناس تعافوا من أفيونهم القديم.»

تنهد بمرارة وأضاف:

«الشعب ببساطة... شُفي من أفيون الكرة، كما شُفي الصينيون من أفيون الخشخاش.»

رفع وزير الأوقاف يده ببطء، وصوته يحمل رجفةً حقيقية:

«ما سأقوله لا يُصدّق. المساجد يوم الجمعة خلت إلا من الأئمة وبعض العجائز. حتى الكنائس تقلّص حضورها بشدة.

كأن الناس اكتشفوا أن الدين الذي يُبث على المنابر فقد معناه.

هناك من أقنعهم أن الشعائر تحوّلت إلى أدواتٍ سياسية، وأن الصلاة فقدت روحها تحت أعين الأمن والإعلام.

الأدهى أن المسلمين والمسيحيين اتفقوا لأول مرة على العصيان الهادئ، وكأن الوعي تجاوز الطوائف، وتحرّر من الخطاب الديني الرسمي.»

قال رئيس الوزراء بنبرةٍ تجمع بين الدهشة والقلق:

«الشعب يقاطع عاداته للمرة الأولى. هذه ليست ثورةً في الشوارع ولا إضرابًا اقتصاديًا، بل ثورةٌ في الصمت.

نحن أمام وعيٍ جديد لا يمكن قمعه أو استرضاؤه بسهولة.

إذا استمر هذا الهدوء، فسنفقد السيطرة بالكامل، لأن السلطة لا تعيش بلا استجابة.

نحن نتنفس من صخب الجماهير، من جدلهم، من انفعالهم. فإذا صمتوا... اختنقنا.»

نهض وزير الداخلية بثقةٍ مصطنعة وقال وهو يشد سترته العسكرية:

«الحل بسيط. نعيد اللعبة القديمة: نُطلق بعض الجماعات الدينية من السجون لتثير الجدل من جديد، تُحيي الصراع بين العلمانيين والمتدينين، ونستعيد الانقسام الذي نعرفه.»

لكن الرئيس، من على الشاشة، قاطعه بصرامة:

«تلك اللعبة احترقت. الشعب جرّبها وفهمها، ولن يُلدغ مرتين.

كما أن الخارج لن يمنحنا وقتًا لمثل هذا العبث.

نحتاج إلى حلٍّ جديد، عاقلٍ، لا يعتمد على المغامرة غير المحسوبة.»

هنا تدخل وزير الدفاع بصوتٍ ثابت ونظرةٍ مباشرة:

«اسمحوا لي بالتذكير بحقيقةٍ لا تحتمل النقاش: الجيش لا يمكن أن يكون أداةً ضد الشعب.

في بلدان الطوائف قد يُعزل جزءٌ من الشعب ويُضرب، أما هنا فالشعب كله متصل.

إن اتحد الناس في مطلبهم، فلن نملك سوى تنفيذ إرادتهم.»

ساد الصمت، وكان في كلماته تحذيرٌ عاقل بأن الحل ليس في القمع، بل في التفاهم.

وقف خبير علم الاجتماع، رجلٌ هادئ الملامح عميق النظرة، وقال بصوتٍ متزن:

«منذ سنوات، كان الناس يشتبكون في معارك عبثية حول الدين، والكرة، والفكر، وكل ما يُثير الجدل.

كنا نعتقد أنها حيوية، لكنها كانت فوضى مُوجَّهة.

اليوم سكتت الأصوات، وهدأت المعارك، لأن الناس أدركوا اللعبة.

لقد فهموا أنهم يُدارون بالاستفزاز، وأن كل جدالٍ يُغذي سلطةً ما.

إنهم الآن ينسحبون من حلبة الصراع، لا لأنهم فقدوا الحماسة، بل لأنهم أدركوا أن الانفعال وقودُ الاستبداد.»

ثم نهض خبير علم النفس المجتمعي، رجلٌ اتسم بالحكمة، وألقى كلمته بهدوءٍ يشبه التأمل:

«لقد توقّف الثور عن الجري خلف الرايات الملونة.

لم يعد يلعن الزعماء ولا يمدحهم، لم يعد يصرخ في الميادين ولا يشارك في المسرحيات الإعلامية.

هذا الصمت ليس ضعفًا، بل هو أول درجات الوعي.

إنهم ببساطة فصلوا القابس الذي كان يُشغّل آلة السلطة، فاختنق الهواء السياسي، وصارت السلطة بلا طاقة.»

توقف قليلًا، ثم أضاف بصوتٍ أكثر عمقًا:

«ما يحدث ليس تمردًا، بل شفاء.

شفاءٌ من فيروس الدروشة، من التبعية العاطفية، من تقديس الرموز، من العبودية الطوعية.

ولا حلّ أمامنا سوى الإصلاح من الداخل، من القمة إلى القاعدة، بهدوءٍ وتدرّج.

يجب أن نفتح النوافذ للنخبة المخلصة، وأن نحاور الشعب لا أن نخدعه.

مبدأنا من اليوم: «سيب وأنا أسيب». التنازل المتبادل سبيل النجاة.»

سكتت القاعة طويلًا.

الرئيس على الشاشة ظل صامتًا، وملامحه لأول مرة بدت مترددة.

خرج الوزراء من القاعة مثقلين بالأسئلة، لا أحد يتبادل النظرات، وكأن كلًّا منهم يسمع صدى فكره وحده.

وفي الخارج، كان الشعب يمضي في صمته الكبير، يمارس حياته بوعيٍ جديد، كأن البلاد استيقظت من غيبوبةٍ طويلة.

لقد شُفي الشعب من فيروس الدروشة.

ولأول مرة، اضطرت السلطة أن تتعلم الإصغاء.

***

قيمٌ بلا مساومة

بعض الأسئلة ليست بحثًا عن الحقيقة، بل كمينٌ للعقل والضمير.

تُطرح بطريقةٍ تُرغمك على المفاضلة بين ما لا يُفاضَل فيه،

كأن يُقال لك: في البحر، من تُنقذ أولًا، أمك أم زوجتك؟

سؤالٌ يبدو ذكيًا، لكنه فخٌّ خفيّ، لأنه لا يختبر وعيك، بل يربك وجدانك، ولا يبحث عن موقفٍ واقعيٍّ، بل عن خلخلةٍ أخلاقيةٍ في داخلك.

فلو حدث المشهد، فلن تدري ما تفعل، لأنّ المواقف لا تُعاش بالعقل وحده، بل بانفعال اللحظة وحرارتها.

لذلك، ليست الإجابة أن تختار، بل أن ترفض التورط في فخ اللعبة وتقول:

«عندما يحدث ذلك سأرى ما أفعل».

فما أكثر الأسئلة التي تُغرقنا قبل أن نرى البحر.

ومن هنا تبدأ حكايتنا مع القيم:

كيف نحافظ عليها حين تُعرض علينا بثمن، أو حين تُختبر في لحظة ضعف، أو حين تلتبس علينا المصلحة بالحق؟

***

وقد واجه كثير من الصالحين مواقف شبيهة بهذا الامتحان الخفيّ...

ورد في كتاب ابن الجوزي «صفة الصفوة».

خرج عبد الله بن المبارك إلى الحج، فصحبه رجل، وكان معه مالٌ في عصًا قد نقرها، وجعل فيها الدراهم وسدّ رأسها.

فخرج عليهم اللصوص في الطريق، فقالوا له: ما معك؟

قال: «مالي في العصا».

فظنّوه يمزح وتركوه.

فلما أخذوا أموال الناس كلهم، رجعوا إلى كبيرهم، فقال لهم:

«هل بقي أحد؟»

قالوا: «رجل قال إن ماله في العصا».

قال: «عليّ به».

فجاؤوا به، فكسرت العصا، فإذا فيها الدراهم!

فقال له: «ما حملك على أن تخبرنا؟»

قال: «الصدق».

فقال اللصّ: «ما أحوجني إلى مثله!»

ثم تاب التائبون منهم على يديه.

هذه قصة للوعظ، وتمثل فخا من زاوية أخرى خادعة، تدعو إلى الصدق مهما كانت النتيجة، ويتناقلها الناس، ولكن... هل ما فعله هو الصواب؟

وهل لو صمت لكان صمته أقلَّ إيمانًا من قوله الصدق؟

وهل القيم في وقت السلم تظل مقدّسة في وقت الحرب؟

بين الصدق كقيمة، والحكمة كحمايةٍ للنفس، يبقى السؤال:

أين تنتهي المبدئية، وأين تبدأ المساومة؟

***

حدثَ أن ارتكب تلميذٌ في الفصل خطأً يستوجب العقاب، فما كان من المعلّم إلا أن التفت إلى أحد زملائه وقال:

« قُمْ فَاصفَعْهُ على وجهه!»

تردّد الصغير في مقعده، مأخوذًا بين الخوف والدهشة، فزمجر المعلّم مهدّدًا: «إن لم تفعل، صفعتُك مكانه!»

فتقدّم التلميذ بخطواتٍ مرتجفة، وصفع زميله على مضض.

مشهدٌ بسيط في ظاهره، لكنه ترك في الأجيال ندبةً عميقة.

فالمعلّم استخدم سلطته ليعلّم الطفل أول درسٍ في «كسر القيم».

أن تتخلّى عن الحق لتنجو، أن تتغاضى عن الظلم لتسلم.

وأن تُؤذي بريئًا كي تتجنّب الألم.

نادرٌ أن يملك طفلٌ وعيًا وشجاعةً ليرفض هذا الظلم، ولهذا يكبر كثيرون وهم يحملون في داخلهم تلك الندبة الأولى، يتعلّمون باكرًا أن الفضيلة قابلة للمساومة، وأن النجاة قد تُشترى أحيانًا بثمنٍ أخلاقيٍّ باهظ.

***

وفي سياقٍ مختلف، لكن الدرس واحد...

في أحد معسكرات الاعتقال النازية في الصحراء الجزائرية،

كان روجيه جارودي أسيرًا مع نحو خمسمئة من المناضلين الذين قاوموا الهتلرية.

وفي يومٍ من الأيام، نظموا مظاهرة داخل المعسكر،

فأصدر القائد الألماني أمرًا بإطلاق النار عليهم.

لكنّ الجنود الجزائريين المكلّفين بتنفيذ الأمر رفضوا،

وقال أحدهم: «من يطلق النار على إنسان أعزل، لا شرف له كمحارب».

بذلك الرفض، بقي جارودي حيًّا، ومن تلك اللحظة بدأت رحلته الفكرية نحو فهم الإسلام، بعد أن رأى في أولئك البسطاء تمسّكًا بالقيمة إلى حدّ التضحية بالحياة نفسها.

***

القيم «واحدٌ صحيح»، لا نصف ولا ربع ولا شِبْه قيمة.

إما قيمة أو لا قيمة.

في القيم لا مفاوضات، ولا حلول وسط، ولا تقسيمات رمادية.

طنّ من قيمة + جرامٌ من التنازل = باطل.

ولو خرجنا من قرن الأيديولوجيا السابق بهذه الحكمة لكفانا.

***

قرأت في شبابي قصةً تحمّستُ لها كثيرًا وقتها...

نوى «حسن البنّا» أن يرشّح نفسه للانتخابات في مواجهة حزب الوفد، وجلس زعيم الإخوان والوفد وتفاوضا.

ثم أعلن البنّا تنازله عن الترشيح، وكان المقابل أن تقوم الحكومة بالتضييق على بيوت البغاء، وتوسيع مساحة الحرية لجماعته في نشر دعوتهم وإنشاء مقراتهم.

ومرّت الدورة البرلمانية وجاءت التالية، فأعلن ثانيةً ترشّحه، لكنّ التفاوض فشل وترشح وسقط في النهاية بتدخل السلطة.

ولم يتعاطف الناس معه لأنه بدا وكأنه يتفاوض باسم جماعة، لا باسم الوطن.

قرأتُ هذه القصة وأنا شابٌّ وكنت شديد الإعجاب بهذا الذكاء،

ولم أكن أدرك وقتها معنى القيم المطلقة كما أفهمها الآن.

لكن لو تخيّلنا أن الحزب المقابل كان شيوعيًا أو إلحاديًا أو يدعو للمجون، وتنازل عن ترشّحه مقابل مكاسب خاصة، هل كنت سأحمد ذكاءه وأثني على قراره؟

لا شك أن الإجابة: لا.

كنت متحمسًا للشخص وللأيديولوجيا، لا للقيمة.

ولم أنتبه أن العدل لا يُقاس بالانتماء، وأنّ التفاوض على القيمة سقوطٌ مهما كانت المبرّرات.

***

الناس كادت أن تعدم من يتمسك بالقيمة لقرنٍ كامل بسبب الأيديولوجيا.

والتفاوض على القيمة يشبه في أذاه وشرِّه مبدأ «التقية» الذي يعتنقه بعض الشيعة، فكلاهما يخلط الطاهر بالملوّث باسم المصلحة.

من يرشّح نفسه من أجل الناس لا يتنازل في الغرف المغلقة، حتى لو كان الاتفاق أخلاقيًا.

لا تفاوض في الخفاء لصالح الدعوة ولا الدين ولا الشعب.

من يمثّل الناس علنًا، فعليه أن يتفاوض علنًا ويحترم الناس.

***

وعلى الضفة الأخرى، يقف الإمام محمد عبده، الذي رفض إغراء الخديوي حين عُرض عليه منصبٌ كبير في الأزهر مقابل تمرير قطعةٍ من أوقاف المسلمين إلى يد الحاكم.

كان بوسعه أن يتذرّع بأنه سيُصلح من الداخل، لكنه أدرك أن الإصلاح لا يولد من رحم التنازل عن الحق، فآثر الخسارة الشخصية على خيانة المبدأ.

***

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ **[النساء: 135]**

في هذه الآية، أمرنا الله تعالى بالعدل في الشهادة، حتى لو كانت الشهادة تضرُّ بالنفس أو الوالدين أو الأقربين، طالما هي شهادةُ حق.

وحذّرنا أن يدفعنا نفوذُ الأثرياء إلى مجاملتهم، أو أن تدفعنا الشفقةُ على الفقراء إلى الشهادة بما يُخالف العدل.

في هذا المثال القرآني، «التزامُ القيمة الكاملة» يتجلّى واضحًا: العدلُ، وفقط العدلُ، مهما كانت العوامل التي تميل بالقلوب أو تزيغ بالبصائر.

***

القيمة لا تتجزّأ، ولا تُؤخذ على جرعات، ولا تُستعار عند الحاجة.

إما أن تسكنك كاملة... أو تتركك كلّها.

«إنّ القيم التي تُساوَم تُفقد معناها، ولو بقيت الأسماء.»

الطريق الثالث

كانت سيارة الشركة تشقّ الطريق الرملي مع أول خيوط الصباح، بينما جلس الموظف إلى جوار السائق يقلب أوراقه بفتور.

قال فجأة:

- أين كنتَ أول أمس؟ لقد بحثت عنك ولم أجدك!

ابتسم السائق ابتسامة غامضة وقال بحماس:

- ألم يصلك آخر الأخبار؟

- ماذا حدث؟

- جاءت شكوى «مجهولة الهوية» ضد أمين المخازن بالشركة، وعلم المدير – عن طريق رجاله في المؤسسة – أن لجنةً مفاجئة ستأتي للتفتيش.

فاستنفر كل طواقم السائقين للبحث في جميع المنشآت المنتشرة عبر المحافظات عما نقص من عهدة أمين المخازن.

كنتُ أبحث مثلهم بالسيارة حتى استُكملت العهدة قبل وصول اللجنة، ومرّ الأمر بسلام.

قال الموظف وهو يهزّ رأسه بدهشة ممزوجة بالشك:

- عجيبٌ كيف يهربون من كل لجنة وكأنهم يطاردون ظلّهم!

ابتسم السائق بلا مبالاة، وأدار المقود نحو البوابة قائلاً:

- المهم أنهم خرجوا منها سالمين... كالعادة.

ثم عمّ الصمت في السيارة لحظات، ولم يبقَ في الجو إلا صوت المحرّك المتعب، وسلام خادع يخيّم على الطريق، سلام ليس في الضمائر.

***

بينما اللجنة منهمكة في الجرد، كان الهمس يدور بين الموظفين بالمؤسسة، فالكل يعلم الحقيقة وتمر فوق رأسه بسلام ودون ازعاج، قال أحد الموظفين بانفعال مكتوم:

- ولماذا يهرع المدير لاستكمال العهدة بنفسه؟ هذا لا تفسير له إلا أنه شريك لأمين المخازن، وبهذا فهو لص!

ردّ الآخر بابتسامة باهتة:

- وهل هذه معلومة جديدة؟ الكل يعرف أنهم لصوص، ولكننا اعتدنا أن نغضّ البصر ما دام المرتب مستمرًّا في النزول آخر الشهر!

غادرت اللجنةُ الشركة بعد أن تأكدت من مطابقة العهدة في المخازن، وكأن شيئًا لم يكن.

ثم بدأ الجدّ، وحان وقت القصاص... لا من اللصوص، بل من الذي تجرّأ وكتب تلك الشكوى الغامضة!

استُدعيت الإدارة، وشُكّلت لجنة للتحقيق، وجيء بمدير الأمن ليقود العملية وكأنه يبحث عن مجرم خطير.

استعانوا بـ «شرلوك هولمز» الجديد، وبدأت رحلة البحث عن هذا الوغد الذي أرسل شكوى دقيقة التفاصيل، وكأن عينيه في قلب المخازن.

ومع مرور الأيام تضيق الدائرة شيئًا فشيئًا، وبدأوا يشتبهون في أكثرهم كفاءة، فكلُّ من يعمل بضمير صار متهمًا تلقائيًا.

حتى وقع «سامي» أخيرًا في الفخ... واعترف.

كان «سامي» مهندسًا شابًّا يمتلك وعيًا يقظًا وضميرًا لا ينام، وربما كان حبُّه للقراءة سببًا في هذا النقاء الصعب، فالمعرفة تهذب النفس والضمير.

كان زملاؤه يرونه غريبًا قليلًا، لا يضحك كثيرًا، ولا يشاركهم سخريتهم من العمل.

وحين يتعطل أحد الأجهزة، كان أول من يصل إلى موقع العطل، يحمل أدواته كجنديّ في معركة، وحين ينجح يُقابَل بنظرات صامتة تبطن الحسد لا الامتنان.

رغم تفوقه، كان أكثر ما يحيره هو صمت الزملاء؛ فمئات الموظفين يعلمون ما يجري من فساد وظلم، يرونه كل يوم ولا يجرؤ أحد على الاعتراض، ولم يسترح ضميره لمشاركتهم هذا الصمت، وظل الألم يتصاعد داخل نفسه.

***

بينما سامي يجلس في غرفة الاستراحة، يحتسي قهوته بصمت، يتأمل الجدار الملطخ بإعلاناتٍ قديمة عن «الانضباط في العمل» و«قيم المؤسسة».

دخل أحد زملائه، مهندس خفيف الظلّ ثقيل النية، وقال مبتسمًا وهو يربّت على كتفه:

– لا شك يا سامي أنك ماهر وذكي، لكنك لست «إدارجي»!

ابتسم سامي في البداية، ظنها مجرّد نكتة، لكن العبارة ظلت تتردد في رأسه طوال اليوم.

تساءل في نفسه: ما معنى أن أكون «إدارجيًا»؟

تدريجيًا فهمها... إنها «مهنة داخل المهنة»:

أن تتنفس نفاقًا، أن تعرف مفاتيح كل مدير ورئيس،

أن تقول ما يحبّون، وتفعل ما يرضيهم، وتتحاشى كل ما يثير ضيقهم،

أن تحفظ اهتماماتهم عن ظهر قلب: من يشجع الأهلي، من يفضّل «المديح»، من يهوى المال، من يطارد النساء، ومن يجد راحته في لفافة دخانٍ خفية.

وحين تُشبع هذه الثغرات الخبيثة، تصبح نجمًا إداريًا لامعًا، أما المهارة والانضباط والضمير فهي رفاهيات لا وزن لها في ميزان المؤسسة.

فَهِمَ «سامي» أن زميله لم يكن ساخرًا بل واقعيًا؛ فقد قرأ سيرته الوظيفية بوضوح، وراقب صعود الآخرين الأقل كفاءة.

كان يراقب المشهد كل يوم: المدير يمدح منافقًا في اجتماع رسمي، والزملاء يضحكون بتصفيق مصطنع، ثم تُوزَّع المكافآت على «المخلصين».

نظر سامي حوله، وشعر أن الصمت الجماعي ليس حيادًا، بل جريمة جماعية.

مئات الموظفين يعلمون ويرون ويسمعون، لكن لا أحد يكتب، لا أحد يحتج، ولا أحد يجرؤ حتى على إرسال شكوى «بدون توقيع».

وكانت تلك الكلمة «إدارجي» بداية وعيه المرير:

أن الحق في هذا المكان لا يُقال، بل يُعاقَب عليه.

وأن الطريق الصعب يبدأ من كلمة واحدة... لا تُقال.

جلس سامي في مكتبه يحدّق في شاشة الكمبيوتر، حين مرت أمامه صورة قديمة لممثلة شابة، جميلة وموهوبة، تنبأ لها الجميع بأن تكون نجمة الشاشة بلا منافس.
تذكر كيف حاول ثري عربي السيطرة على مسار حياتها الفنية، أراد أن يفتح لها طريق المجد الملوث، فرفضت بعفّة صادقة.
كانت تلك الصدمة له، فأغضبته وعقابًا لعفتها قال في صمت:
«سأغلق عليك كل الأبواب.»
وظلت طوال حياتها القصيرة في الظل.
نسيها الناس، ونسى زملاؤها في الوسط الفني وجودها، فمن سوف يتعاطف معها كان محكومًا بنفس مصيرها.
صمت الجميع وتخلّوا عنها، وأكلوا عيشهم بمواهبهم، وأدرك سامي حقيقة مرة: «الموهبة وحدها لا تكفي دون تنازل فادح»

***

وبينما تتناوب العصابة التحقيق المهين مع «سامي»، كانت الشركة كصندوق فارغ، لا حياة فيه إلا لتماثيل ثلاثية «لا ترى، لا تسمع، ولا تتكلم».
بدأ الرؤساء بمحاولة تأديب سامي وقهره، والزملاء جميعهم يتباعدون عنه كي يتلقى قدره، ويدفع ثمن نبله ويقظة ضميره وحده، تزورّ عنه العيون، وتتجمد النظرات، وتفقد الوجوه بريقها. فإذا دخل عليهم وهم منغمسون في حديثٍ ساخن، صمت الجميع فجأة، الكل يتحدث عنه، لا معه.
أغلبهم مقيّد بعلاوةٍ، أو خوفٍ من تَقَصُّدٍ أو انتقام، وقلة الحيلة سمتهم وسجيّتهم.

***

قام رؤساؤه بتقصّده وإهانته معنويًا، وسلّطوا عليه بعض الموظفين المنافقين والسفهاء ليهينوه ماديًا، ويحاولوا أن يُخرجوه عن وعيه، فيرتكب أخطاءً تُدخله في دوامة الشكاوى الإدارية.

لكنه كان يقظًا، صبورًا، ولم يقع في الفخ.

تحمّل كل ذلك بصبرٍ، وزاد عليه أنه أرسل شكاوى باسمه إلى كل الجهات.

تصاعد التوتر خوفًا من أن تصل تلك الشكاوى إلى جهاتٍ عليا لا سلطة لهم عليها.

كان الصراع قاسيًا على جسده وأعصابه، ولم تتركه المعاناة حتى في منامه.

كانت تأتيه كوابيس مذهلة في دقة التعبير عن حاله.

في أحد الكوابيس المتكرّرة، أحاط به الزملاء، وأمسك كلٌّ منهم بيده وقدمه، وأوثقوه تمامًا، بينما آخر قبض على رأسه وجذبها إلى أسفل لتهيئة رقبته للذبح.

يتقدّم المدير وهو يقول بصوتٍ متهدّج:

«بسم الله... الله أكبر... صبرك الله على ما بلاك.»

ثم يهمّ بذبحه.

وفي يومٍ اقترب منه زميلٌ يعرفه من رائحته؛ يضع دائمًا عطرًا ثقيلًا بقدر سمعته الشريرة، فهو يلعب على كل الحبال.

قال له هامسًا:

«لو لم تكفّ عن الشكوى، فسيرسل أحدهم شكوى تتهمك بالإرهاب، وأنت تعرف ما أقصد. نحن أيدينا طويلة، ولنا معارفنا عندهم.»

عاد سامي إلى بيته وهو يشعر بالانهيار التام.

إلى متى يتحمّل كل هذا وحده؟ لقد أصبح في الشركة مثل الحيوان الأجرب؛ الكل يبتعد عنه ويتركه وحيدًا في معاركه.

وفي تلك الأيام، تصادف أن نشرت وسائل الإعلام حادثةً هزّت الرأي العام، حين ألقى موظف بنفسه من أعلى مبنى جريدةٍ شهيرة.

تساءل الجميع عن السبب، لكن سامي علم السبب بداهةً؛ فالذي انتحر سبقه بخطوة.

فموظف ينتحر وسط زملائه يعني أنه عاين قهرًا من رؤسائه، وتجاهلًا وسلبيةً من زملائه، فمرض باليأس وتصرف تصرف اليائسين.

كانت كلمات التهديد الأخيرة ضربةً قاضية؛ لا أمل في المقاومة.

ظل خيال سامي يتأرجح بين مصير الفنانة التي قُهِرت فماتت في الظل، والموظف الذي انتحر.

وبعد استغراقٍ طويلٍ في التفكير والمشاعر السيئة، قال لنفسه:

«لا بد من التفكير بطريقٍ آخر... لا بد من الهروب من سحر مشاعر اليأس وأفكار الانهيار.»

في اليوم التالي، دخل على المدير، وقدّم استقالته.

ثم انصرف إلى أرض الله يبحث عن عملٍ آخر، ليحيا حياةً جديدة.

خرج كمن يعبر بابًا إلى حياةٍ أخرى؛ يهاجر في أرض الله الواسعة، بحثًا عن «الطريق الثالث».

***

العطس في طبق الحياة

أتذكر ذلك اليوم الذي مرّ كعاصفةٍ على حياة جدي، وعلى كل أفراد عائلة «السوابقة».

كان قد مضى على زفافي أيام قليلة، وكان الزفاف تتويجًا لحبٍ نما بيني وبين ابنة خالتي منذ الطفولة.

أتذكّره اليوم ورغم مرور سنوات طويلة، بألوانه الطبيعية وروائحه العطرة.

عائلة السوابقة كانت قوية وذات نفوذ وبطش، تمتلك أكثر فدادين القرية، وما أكثر أعداءها وضحاياها.

وحين يطالها حادث من مجهول، يصعب معرفة الجاني، فتاريخها المليء بالظلم طال أغلب أهل القرية.

***

في جوف ليلٍ شتويّ كثيف السحاب بلا قمر، وبينما الجميع نائمون في السرايا المحصّنة بالأسوار العالية والحراسات الكثيفة عند الزوايا، فزعنا على أصوات اقتحام.

عصابةٌ مقنّعة كثيرة العدد تغلّبت على الحرس، واقتحمت السرايا، وأنزلت الجميع إلى دار الضيافة الواسعة.

ومن أعلى، صدر صوت أحد الرجال المقنّعين ينادي على أول أسرة.

قاد رجلان الزوج والزوجة إلى أعلى، وادخلاهما غرفة نومهما.

بدأوا بالزوجة: وضعوا شريطًا لاصقًا على فمها، وعصابة على عينيها، وأوثقوها وهي ممدّدة على السرير.

توجّه أحدهم إلى الزوج قائلًا ببرودٍ مرعب:

"سنمنحك الخيار في مصيرها.

هل نغتصبها أمامك وأنت مقيّد مفتوح العينين؟

أم نفقأ لها عينًا واحدة؟

أم نقتلها؟

قرارك يُنفّذ حالًا.

وإن لم تختَر، سنقتلك ثم نغتصبها.

هذا انتقامنا منكم، الذي سيُشفى به صدرنا. فماذا تختار؟"

وبعد مساوماتٍ وتلويحٍ بالعنف وإهانة، نطق الزوج بقراره.

ثم تركوهما مقيّدين، بعد أن وضعوا لاصقًا على فميهما، ينتظران القدر القاسي.

تكرّر المشهد ذاته مع الأسر السبع التي تسكن السرايا، كل زوج اختار، وكل زوجة سمعت القرار، دون أن تستطيع الاعتراض أو النطق.

كنت أنا وزوجتي آخر من تمّ استدعاؤهما، ثم خُيّرت... فاخترت.

وبينما الأبناء والخدم وبقية ساكني الدار في دار الضيافة بالأسفل محبوسين، سمعوا هرجٌ وحركةٌ غريبة لبضع دقائق، ثم سكت كل شيء فجأة.

طال الصمت، حتى تجرّأ أحدهم وفتح الباب بحذر، فلم يجد أحدًا.

العصابة غادرت.

أسرعوا إلى غرف النوم وفكّوا القيود.

وانهمرت الأسئلة عما حدث داخل الغرف، لكن لم يجرؤ أحد على البوح.

ومع ذلك، بدا الغضب على وجوه الزوجات، والتعب على وجوه الأزواج.

أمر جدي الجميع بالصمت، وهدّد من يشيع الخبر بعقابٍ قاسٍ، قائلًا:

«هؤلاء أرادوا الانتقام دون أن يؤذونا، ربما خافوا بأسنا فاكتفوا بهذه الرسالة.»

ومع تلاشي الفزع الأولي، بدأنا نتساءل عن هويتهم ودوافعهم.

لم يكونوا لصوصًا عابثين ولا قطاع طرقٍ متعطّشين للدماء، بل رجالًا من أطرافٍ بعيدة من القرية، ظلمتهم عائلة السوابقة، وسلبتهم الأرض والكرامة بأدوات الإقطاع والسلطة.

جاءوا حاملين حقد السنين، لكنهم اختاروا انتقامًا مختلفًا ـــ أعمق من الدم.

عرفوا أن الجرح الجسدي يُشفى، أمّا انكسار الثقة فلا يُداوى.

فصاغوا انتقامًا بوعيٍ قاسٍ: لم يهاجموا الأجساد بل استهدفوا الروابط بين الرجال والنساء بكلمةٍ واحدة تُقال في لحظةٍ، فتعيش في الرأس إلى الأبد.

هكذا انتقموا... لا بالسيف، بل بالفكرة.

ظلّ الأولاد يسألوننا عمّا جرى، ونحن نكذب ونختلق قصصًا وهمية، لكن لم يقتنع أحد.

الزوجات اشتعلن غضبًا، وكثيرًا ما كانت تفلت من إحداهن عبارة تأنيب قاسية لزوجها دون تصريح، فلا يردّ الأزواج إلا بالتغاضي والصمت.

العصابة غادرت بأجسادها، لكنها أبقت أثرها في النفوس، فعكّرت العلاقات وأفسدت الحياة.

ما سمعته كل زوجة من قرار زوجها كان كفيلًا بتحطيم الحبّ والاحترام بلا رجعة.

حتى إنّ زوجة عمي طلبت الطلاق، وطلقت فعلًا دون أن تذكر السبب.

وأنا... كنت الوحيد الذي نجا.

لم تستطع العصابة أن تفسد طبق حياتي، لأنني لم أرسب في الاختبار.

اخترتُ ما يجعل الحبّ أكبر من الخوف، فقلتُ لهم:

«أريد سلامة زوجتي، ولا أختار»

فزاد حبّها، وزاد صفاء الحياة.

كان انتقامهم رسالةً... والرسائل أحيانًا زلزال لا يهدأ.

***

الغِواية

في لقاءٍ تلفزيونيٍّ مع الصحفي الشهير، سُئِل عن أعجب القصص التي واجهها في مسيرته الطويلة، والتي لم يستطع نسيانها مهما مرّ الزمن.

ابتسم قليلًا، ثم قال بهدوءٍ وتأمّلٍ:

«في بداياتي كنت أقوم بزياراتٍ للسجون، أجري لقاءاتٍ مع من ينتظرون أحكامهم. وعلى مدى أسابيع، استمعت إلى قصصٍ كثيرة؛ بعضُها يثير الدهشة، وبعضُها يثير الشفقة. لكن أكثر ما لفت انتباهي كان حديث السجناء المتكرّر عن *الثلاثي* - ثلاثة رجالٍ متكاتفين كأنهم إخوة، رغم أنهم لم يعرفوا بعضهم إلا خلف القضبان».

كانت شهرتهم في السجن تثير فضولي، فطلبت لقاءهم.

***

«جمال – غواية الجسد»

التقيت بهم أثناء فترة التريُّض، وكانوا يسيرون كتفًا إلى كتف، كأن خيطًا خفيًّا يجمع بينهم.

بدأت حديثي مع الأول، وكان اسمه «جمال».

شابٌّ جامعيٌّ لم يبلغ العشرين بعد، ابنٌ وحيدٌ لأبٍ جاوز الستين.

تُوفيت أمه وهو صغير، فشبَّ في بيتٍ يملؤه الصمت أكثر مما يملؤه الحنان. ظلّ الأب أرملاً طويلًا، يكسوه الوقار من الخارج وتنهشه الوحشة من الداخل. وحين التحق جمال

بالجامعة، قرّر الرجل أن يُعيد لحياته لونها، فتزوّج فجأةً من سيدةٍ مطلّقةٍ في منتصف العشرينات.

في البدء بدا البيت متوازنًا، كأن القدر أراد أن يجمع بين الشيخوخة والفتوّة ليكتمل النقص في كليهما.

غير أنّ الأب، في سعيه الحارّ لتعويض ابنه عن قسوة اليُتم، - ارتكب حماقة الأب الرحيم - ظنّ أن إزالة الحواجز بين ابنه وزوجته الجديدة ستقرّب القلوب وتُطفئ الغيرة الدفينة.

كان يقول في نفسه:

«ما دمتُ أثق بها، فليألفها ابني كما يألف أختًا له، فربما يشفى من جرح فقد أمه»

فترك الأبواب مواربةً بين الغرف، والضحكات تتردّد بلا تحفّظ، ولم يلحظ أن ما يظنه دفئًا عائليًّا كان شرارة نارٍ تتّقد في الخفاء.

وهكذا تحوّل الحنان المفرط إلى «فتنةٍ مقنّعةٍ باسم المحبة».

كانت العروس الشابة لا تحتشم أمام الفتى، والزوج العجوز يبتسم راضيًا، يظن أن تقاربهما علامةُ ألفةٍ وسلام.

لكن الجدران التي تفصلهم لم تكن كافيةً لحجب أنين الليل ولا رائحة الجسد، فصار البيتُ سجنًا نفسيًّا لجمال؛ يرى ويسمع ويصمت، حتى تشقّقت داخله أسوار الطفولة.

ومع مرور الأيام، تمدّدت الفتنة حتى «تحرّشت به زوجة أبيه»، والفتى يقاوم ويفرّ من مشهدٍ لم يصنعه.

قاوم طويلًا، ثم سقط في لحظةٍ واحدة، لا رغبةً بل هربًا من صراعٍ لا يملك أدواته.

وحين ضبطهما الأب معًا، استبدّ به جنون الغيرة، فاندفع نحوهما في ثورة عارمة.

دفعه الفتى المذعور دون قصدٍ، فارتطم بالأرض ومات.

قال لي جمال بعينين غائرتين وصوتٍ مبحوحٍ:

«أنا بريء. لو أنصفوني لأخرجوني من القفص، وألقوا فيه أبي وزوجته.

أبي، ببراءة قلبه وسذاجته، لم يدرِ أنه جعلني أواجه امتحانًا صعبًا رغماً عني، وأنا غافل عن تبعاته.

لم يكن شيطانًا، لكنه اقتحم براءتي وسكوني وهو يبتسم ظنًّا أنه يحميّني.

فكانت نتائج أفعاله أعظم تأثيرًا... لأنها جاءت من محبة بلا وعي».

***

« سامح – غواية المال»

أما الثاني فكان «سامح»، في منتصف الثلاثينات، بملامحٍ وادعةٍ تخفي تحتها بحرًا من الحسرة.

عاش في بلاد الخليج عشر سنواتٍ، جمع خلالها ثروةً طيبةً بعرقٍ شريفٍ وأحلامٍ مشروعة، ثم عاد إلى وطنه مثقلاً بثقةٍ عمياء في النظام، وفي وعود الحياة التي تُوزّعها الدولة على مواطنيها كالمسكّنات.

وذات يومٍ جذبه بريق الإعلانات عن «شركات توظيف الأموال».

كانت الشاشات تمطر الناس بوعودٍ مذهّبة:

مشايخ كبار، ونواب في البرلمان، ومسؤولون سابقون يضعون أيديهم على صدورهم وهم يتحدثون عن «الربح المضمون والبركة الشرعية».

ورُفعت لافتات ضخمة عليها صور المسؤولين إلى جانب الدعاة، وكأنّ الدولة تُبارك هذه الوليمة من خلف الستار.

قال سامح في نفسه:

«إذا كان هؤلاء الكبار فيها، فلا يمكن أن تكون نصبًا.»

فأودع كلّ مدّخراته هناك.

وبدأت الأرباح تنهال عليه في الشهور الأولى، حتى شعر أن السماء قد ابتسمت له أخيرًا.

لكنه لم يدرِ أن السماء التي تبتسم أحيانًا قد تكون تبتسم شفقةً لا رضًا.

وفي صباحٍ رماديٍّ، أُغلِقت تلك الشركات فجأةً، وصودرت أموالها، واسترجعت الدولة بالقوة، ما لها أولًا، تاركةً المودعين يواجهون مشقة الإفلاس وخطر ضياع شقاء العمر .

ومن كان بالأمس يباركهم على المنابر، صار يتبرّأ منهم في المؤتمرات.

وفي إحدى الليالي، علم سامح على شاشة التلفاز، أنَ أحدَ هؤلاء «الكبار» الذين ورّطوا الناس في الوهم، سوف يحضر حفلًا فاخرًا في فندقٍ ضخمٍ تُزيّنه الثرياتُ والضحكات، كأنّ شيئًا لم يكن.

غلى الدم في عروقه، وغلبه الغضب على العقل، فشدّ معطفه واقتحم القاعة.

تقدّم من الرجل بخطواتٍ مضطربةٍ وصوتٍ يرتجف بين الحزن والاحتجاج:

«أين ذهبت أموالنا؟ أين ذهبت البركة التي وعدتنا بها؟ أنتم من علّمنا الطمع باسم الدين!»

لم يجبه المسؤول، بل رمقه بنظرةٍ باردةٍ متعاليةٍ وقال باستخفافٍ أمام الحضور:

«اخرج من هنا قبل أن أجعلك عبرةً لغيرك».

كانت الجملة كصفعةٍ أشعلت ما تبقّى من صبره.

امتدت يده إلى كأسٍ زجاجيٍّ على المائدة، ورماه في وجهه في لحظةٍ من الانفجار الإنسانيّ.

تهشّم الكأس، وسال خيطٌ رفيعٌ من الدم على وجنة الرجل المتغطرس، وسالت معه كرامة سامح المنهكة.

تدخّل الحرس، وطرحوه أرضًا، وخرج من القاعة مكبّلًا والدهشة في عينيه أوسع من الندم.

وفي الصباح، كانت الصحف تقول:

«رجلٌ يثير الفوضى في حفلٍ رسميٍّ ويعتدي على شخصية عامة».

لم يذكُر أحدٌ شيئًا عن أمواله المفقودة، ولا عن آلافٍ مثله ينامون على فقرٍ صنعته الأوهام الممهورة بتوقيع الكبار.

قال لي سامح وهو يبتسم بأسًى خلف قضبان الزنزانة:

« لم أُسجن لأنني أخطأت، بل لأنني صدّقت.

صدّقت أن الطمع إذا لبس عباءة الدين يصبح فضيلة، وأن المال إذا باركه المشاهير يصبح حلالًا خالصًا.

صدّقت الدولة حين صمتت، والمشايخ حين ابتسموا، فكانت الغواية جماعيةً، والخديعة ممن ظنناهم حُماة الحقّ.

كنا نحن الضحايا، وهم الأبطال على الشاشات».

***

«رضا – غواية الدين والسياسة»

الثالث كان «رضا»، شابًّا هادئًا على وجهه مسحةُ إيمانٍ خالص، كأنّ السكينة وُلِدت في عينيه.

نشأ متدينًا بالفطرة، يعشق المسجد، ويجد راحته في الخلوة مع الله، لا يعرف من الدين إلا الطهر والبساطة.

لكنّ زمانه كان زمنَ اختلاطِ السياسةِ بالدين؛ زمنًا صارت فيه المنابر تُدار بقرارات المكاتب، والخطب تُحرَّر على مقاس الشاشات.

امتلأت المساجد بالخطابات الصاخبة، والوجوه الملتحية التي تتحدث عن الجنة في كل إعلان، وعن الجهاد في كل فاصلٍ تجاريٍّ.

تبدّل وجه الإيمان، وصار له رعاةٌ رسميون، وممولون، ومخرجون، وجماهير.

تأثّر رضا بما رأى، وصدق أن الأمة تُبعث من جديد، فانضمّ إلى جماعاتٍ دعويةٍ ظنّها طريقًا إلى الله، فإذا بها طريقٌ مرصوفٌ بمصالح السلطة.

كانت الدولة تغضّ الطرف عن أنشطتهم، وتيسر سفرهم إلى أفغانستان لجهاد الشيوعيين، وتفتح لهم المنابر والقنوات، وتُسخّر الإعلام ليقدّمهم كصوت السماء في الأرض.

وحين كان يسأل نفسه أحيانًا عن التناقضات التي يراها، كان يسمع الجواب ذاته:

«لا تقلق، نحن نعمل لله... لكن برعاية الدولة.»

وهكذا كان الدين يُستَخدم وقودًا لمواسم السياسة، والشباب مثل رضا يُستخدمون وقودًا للغواية الكبرى — «غواية الإيمان المغشوش بالسلطة».

ثم تغيّرت المصالح، وتبدّل المزاج السياسي.

انتهت الحاجة إلى أولئك الذين ملأوا الساحات بالتكبير والدموع.

ففي ليلةٍ واحدةٍ أُغلِقت القنوات الدينية، وتحوّل الدعاة إلى متّهمين، والمريدون إلى إرهابيين.

واستيقظ رضا على دويّ الأبواب الحديدية وهي تُغلق خلفه.

قال لي هناك، بصوتٍ خافتٍ يقطر وجعًا لا غضبًا:

«هم الذين أطلقوا لحانا باسم الإيمان، وهم الذين نتفوها باسم الأمن.

هم الذين أغرونا بالجنة حين احتاجونا، ثم رمونا في الجحيم حين اكتفوا بنا.

جعلونا وقودًا لمعركتهم، ثم تركونا رمادًا حين انتهت النار.

نحن لم نغوِ أحدًا، بل غُوينا باسم الله، وبإذنٍ من السلطة.»

***

القرار

ثلاثة رجال، ثلاث مآسٍ، وثلاث خياناتٍ مختلفة... لكن شيئًا ما كان يجمعهم، كأنهم خيطٌ واحدٌ من ثلاث عُقَدٍ متفرّقة.

عدت إليهم بعد أيامٍ أسأل عن سرّ هذا الرابط، فقالوا في صوتٍ واحدٍ يكاد يكون نشيدًا حزينًا:

«كلٌّ منّا خانَهُ من كان أكثر الناس ثقةً لديه».

الأب خان ابنه، والنخبة خانت المواطن، والتحالف الديني خان المؤمن.

كلّهم كانوا ضحايا لمن ظنّوهم حُماةً وأوصياء.

فهمتُ عندها سرّ اسمهم «الثلاثي».

لقد قرروا أن يوحّدوا ما تبقّى من حياتهم داخل السجن، وأن يصنعوا من الأخوّة درعًا يحميهم من الغدر مجددًا.

قال سامح:

«عندما كنا ضحايا وحدنا، كان الألم قاتلًا. الحلّ في ألّا نكون وحدنا بعد اليوم».

وقال رضا:

«طالما لا نستطيع أن نغيّر العالم، فلنُغيّر ما بيننا نحن.»

مرّت السنوات، وخرج الثلاثة تباعًا.

خرج جمال أوّلًا بعد أن أثبتت التحقيقات أنّ الحادث غير متعمّد، فأعطى زوجة أبيه ميراثها ورحل إلى القاهرة ليبدأ من جديد.

ثم خرج رضا، فلحق به وسكن بجواره، وساعده جمال بما استطاع.

وأخيرًا خرج سامح، وقد تبقّى من ماله القليل، فانضمّ إليهما.

بعد عشر سنواتٍ، زرتهم في بيت جمال بالقاهرة.

وجدتهم يعيشون في دفءٍ أخويٍّ نادر، يتقاسمون الرزق والسكينة، كأن السجن أنجب حريةً جديدةً داخلهم.

كانت في وجوههم طمأنينة لا تراها في كثيرٍ من الأحرار خارج الأسوار.

***

الخاتمة

أنهى الصحفي كلامه أمام الكاميرا قائلًا:

«ما أدهشني في قصتهم ليس المأساة، بل ما استخلصوه منها.

لقد أدركوا أن أعظم الألم هو ألم الوحدة في المعاناة، وأن الإنسان حين يقف وحده يكون هشًّا كقصبٍ في ريحٍ مجنونة.

لقد فهموا أن الخيانة لا تُصلَح بالانتقام، ولا يبرؤ منها المجتمع بخطبةٍ أو قانون، بل بالتماسك بين الموجوعين أنفسهم.

وحين ضاعت الثقة في من خانوا الأمانة، اختاروا أن يصنعوا لأنفسهم أخوّةً مختارة، لا تُفرض بالدم بل تُنسَج بالألم.

يتشاركون اللقمة والسكينة، ويمنح بعضهم بعضًا دفئًا يعوّضهم عن برد العالم.

هكذا صاروا أحرارًا حقًّا، لا لأنهم خرجوا من السجن، بل لأنهم تحرروا من انتظار عدلٍ لن يأتي قريبًا.»

الثروة وقِطَطها

ورث "ممدوح" وأخوته من الوالد تجارة ناجحة جعلتهم أثرياء. اشتغل الأخوة الذكور الثلاثة في تجارة أبيهم، وتزوجوا وسكنوا في البناية الكبيرة التي اشتراها لهم. بعد وفاة الوالد، تولى "ممدوح" قيادة أخوته في التجارة، ومرت الأيام السعيدة وهم محسودون على حياتهم الناعمة، يغمرهم شعور بالطمأنينة والاستقرار.

لكن تلك السعادة لم تدم طويلاً، ففي حادث مأساوي فقدوا أحد الأخوة، تاركًا وراءه فراغًا كبيرًا وألمًا شديدًا في قلوبهم. لم تكن مجرد خسارة لشريك في التجارة، بل كان فقدانًا لأخ عزيز، رجل تشارك معهم ذكريات الطفولة والمرح والمغامرات الصغيرة التي شكلت رابطهم العائلي. ترك الحادث أثره العميق في "ممدوح"، الذي شعر بثقل المسؤولية يتضاعف فجأة، إذ أصبح عليه رعاية زوجة أخيه وطفليهما، بينما قلبه ما زال يعتصره الحزن على غياب أخيه، ويختلط شعوره بالأسى مع شعور بالواجب تجاه الأسرة والثروة التي تركها وراءه.

كانت الأرملة الشابة أختًا لزوجة "ممدوح"، فعاشت مع أولادها في رعايته وجواره، وتولى بنفسه إدارة نصيب أخيه من التجارة التي ورثوها. لم تكن حياتها بعد وفاة زوجها سوى مزيج من الأمان المادي والحزن العميق؛ قلبها يتأرجح بين الاشتياق لشريك جديد يملأ فراغ حياتها وبين مسؤولية الأمومة التي لا تسمح لها بالرحيل وراء رغباتها. في العام الأول، خضعت لنداء الواجب، وجعلت تربية أولادها ورفاههم محور حياتها، كأنها تزرع في كل يوم منهم بذرة أمل وسط صحراء

فقدها، تحاول أن تجد معنى وسكينة وسط عاصفة الفقد والحزن.
توالى سريعًا تقدم الرجال لطلب الزواج من الأرملة الجميلة والثرية، وكلما تقدم لها أحد للزواج، يوجه إليها «ممدوح» جملة واحدة:
– "أنتِ حرة، ولكن لن يتربى أولاد أخي مع غريب"، فتتراجع المسكينة، ويعلو في قلبها شعور بالخذلان والحيرة بين رغبتها في الحب وواجبها نحو أطفالها. ومع ذلك لم يتوقف الرجال عن طلب يدها، وكان صراعها الداخلي يتصاعد مع كل عرض، يزيد من شعورها بالحبس في قفص من ذهب، كأن السعادة والحرية أصبحتا حلمًا بعيد المنال.
وكنت كلما اجتمعنا، يدور بيننا حديث طويل عن تصرفات أرملة أخيه الطافحة بالتمرد والغيرة. كلما رأته مع زوجته وأولاده في مناسبة سعيدة، كانت تتصرف بعصبية، تثير المشاكل وتعكر صفو الجو العائلي، وكأن قلبها الموجوع يرفض رؤية السعادة الأنانية أمامها. وحين تراهم في جو هادئ، كانت تتصيد أي حديث لتنتهي بالنكد للجميع، وكأنها تحاول تفريغ شعورها بالوحدة والحرمان من الزواج. لقد أطلقت على بيتها اسم "القفص الذهبي"، تعبيرًا عن شعورها بالحبس رغم الأمان، وكان هذا الوصف يعكس بدقة صراعها النفسي العميق.
كان "ممدوح" يتحمل كل هذا التمرد بصبر، مدركًا أن هذه التصرفات مجرد صرخة احتجاج على وحدتها وحرمانها من الزواج. وعقب كل حديث عنها بيني وبينه، كنت أنصحه بكافة

وسائل الإقناع لإطلاق سراحها، وأذكره بتدينه وثقل ذنبها عليه يوم الحساب، لكنه كان يرفض، صامتًا، غير متأثر، قائلاً:
– "ما شأن هذا بالدين، أولاد أخي من حقنا!"
ومع ذلك لم يكن "ممدوح" قاسيًا، بل يمتلك قلبًا رقيقًا يمتلئ بالمشاعر بسهولة. دموعه كانت تنهمر في المواقف العاطفية والدينية، وكرمه في الإنفاق والعطاء كان يفيض على الجميع. كان متدينًا وملتزمًا بصلاة الفروض، ويكره النفاق، ويتمنى الخير للناس، وفور علمه بظلم أو قهر، يندفع بشجاعة لمقاومته دون خوف من العواقب. وفي صلاة التراويح برمضان، كان يخفي بكاءه المرتجف على قراءة الإمام، كأن قلبه يتأثر بعالمه الداخلي أكثر من أي مشهد خارجي.
يربي "ممدوح" في مسكنه قطة من نوع نادر، تعلق بها بشدة، ويعاملها كفرد من أفراد الأسرة. وعندما يأتي موسم التزاوج، كان المواء يتصاعد ويزعجه، لكنه لم يرضَ بجلب ذكر لها؛ فهو لا يريد أن تحمل وتلد، وكأن خوفه على القطة يعكس جزءًا من حبه للسيطرة ومسؤوليته عن كل من حوله، سواء البشر أو الحيوانات.
عزم "ممدوح" على الحج واقترب موعد الرحيل، وتصادف أن القطة كانت تموء وتتألم، فقلت له:
– "ألا تتحرر من مظالمك قبل الحج، حتى يتيسر أن تعود مغفورًا لك متطهّرًا؟"
– "مظالم!.. أي مظالم!.. أنا لم أظلم أحدًا."
– "القطة.. ستسافر وتتركها تموء! ألا تخشى أن تشتكيك إلى من ترجو غفرانه؟ ربما طردك لأجل القطة!"
– "هههههه"

– "أضحك، ولكن تذكر القطط التي تموء في بيتك."
– "هل جعلتها سريعًا قططًا وليس قطة واحدة؟ أنت الذي تظلمني."
– "أنت تفهم قصدي."
جمع متاعه وغادر للطائرة، وفي الحج كان مدمجًا في الروحانية، حريصًا على أداء جميع الفرائض، وأكثر من التزاحم في الحرم، ونجح مرتين في لمس الحجر الأسعد. كانت الصلاة في الحرم بالنسبة له فرصة لتطهير قلبه وتخفيف ثقل الذنوب، شعور داخلي بالانتصار والسكينة غمره طويلاً، وكأن روحه تحلّق بعيدًا عن قيود الحياة اليومية.
مرت سنوات قليلة، ثم شعر "ممدوح" بأعراض الإرهاق المستمر، وبدأ رحلة قاسية مع مرض خبيث تسلل إلى جسده دون أن يشعر. لم يصمد طويلًا أمامه، وفي آخر لقاء به كان يرقد على سريره في المستشفى، تتفرع من جسده خراطيم وأسلاك أجهزة العناية المركزة، لا يُسمح بالدخول إلا فرادى ولفترات قصيرة.
حين دخل عليه أخوته وأهله كان صامتًا، متماسكًا رغم الألم، وحين رآني، انهمرت الدموع من عينيه بغزارة، وكأنها تفريغ لكل المشاعر المكبوتة طوال حياته. تبادلنا نظرة مسكينة، مليئة بالفقد والوداع، نظرة يفهمها القلب أكثر من الكلام. مسحت بيدي على كتفه وقبّلته، ثم انصرفت. وتوفي "ممدوح" ولم يبلغ الأربعين من عمره، تاركًا وراءه فراغًا كبيرًا وحزنًا عميقًا في قلوب من أحبوه.
رحل "ممدوح"، وترملت زوجته، وزاد برحيله عدد القطط التي تموء في أركان البيت، كأن صوتها يردد صدى غيابه. وتولى أخوه الأصغر مهمة حراسة الثروة وقِطَطها.

***

مسافرون

«ذكريات العيد الأولى»

في مطلع حياتي الزوجية، كانت أجمل أيام السنة عند العائلة يومين فقط: صباح أول الفطر وصباح الأضحى.

عقب الصلاة، تتدفّق الأسر كأنها نهرٌ نحو الدار الكبيرة، يترقّب الصغار امتلاء جيوبهم بالعيدية السخية، ويغمر الطمأنينة جوّ البيت، مع فرح القلب وضحكات الأطفال التي تتحوّل إلى موسيقى العيد.

ولا بدّ في النهاية من صورةٍ جماعية تُخلّد اللحظة قبل أن تمضي.

اليوم تغيّرت أشياء كثيرة في اللوحة، عدا ما في القلوب من مشاعر طيّبة.

تركَت السنون أثرها المعروف في وجوهنا وأجسادنا، وأصبح النداء «يا جدو» يتردّد بيننا، فيجلس الجدود والجدّات بمشاعر من خاض رحلة طويلة بحلوها ومرّها، ووصل إلى مرحلة الراحة؛ حين تُغلق نوافذ البيت عن الخارج، ويعمّ الهدوء، فلا يصل من صخب الحياة سوى أصواتٍ ضعيفةٍ متقطّعة، كأنّ الباب قد أُغلق على ما تبقّى من العمر في سلام.

أجلس بجوارهم وأنظر إليهم بعين الحاضر والماضي في آنٍ واحد، فلا أرى سوى أقراني: رفاق الطريق وأبطال القصة.

حين تلتقي العيون، أشعر أنني أنظر إلى من يلوّح لي بإشارة الوداع؛ فالمهمة قاربت على الانتهاء، ويا ويلَ من يتأخر في الرحيل، إذ يبتلع أحزانًا وأشواقًا تزيد الجسد ألمًا.

«اللوحة التي تغيرت»

لكن اليوم اختفى من اللوحة كثير من جواهرها.

كنا في شبابنا مرحين وثرثارين وفضوليين، لا نتوقّف عن التحفيل والاستظراف والنقاش الساخن في كل المواضيع.

كان الحفل بالألوان الطبيعية القوية، بينما اليوم اللوحة مختلفة وتائهة.

جاء أحد أبنائنا - طفل الأمس - من السفر وحضر الحفل.

وبعدها سألتُ ابنتي:

«ماذا حدث؟ لقد جلس كل فردٍ من أبناء العائلة ساكنًا، وعلى حجره أحد أطفاله، وبدا على الجميع الإرهاق والشرود. لم يخرج من فم أيّ أحدٍ سوى كلماتٍ قليلةٍ بطيئةٍ من وراء الوعي، بعض كلماتٍ مجهدة، وبلا فضول، وكأنهم كانوا معًا بالأمس!»

فقالت لي ابنتي بتلقائية:

«يا أبي، كلهم مسافرون.»

هناك كلمات تخرج عفويةً فتبلغ الكمال.

فمهما استدعيتُ من خزانة ثقافتي للتعبير، لن أجد أعمق ولا أصدق من هذه الكلمة لوصف الواقع.

كلهم مسافرون!

وما زالوا مسافرين.

ولا ندري إلى متى السفر.

أكثرهم مسافرون في المكان نفسه... مشتّتون... جسدٌ هنا، وخاطرٌ هناك، وأحلامٌ أبعد... وهمومٌ أسفل الجلد.

«الفارق بين الماضي والحاضر»

في الماضي، كان الرجال يعودون من أعمالهم كما يعود المسافر إلى بيته بعد يومٍ طويل؛ يخلعون همومهم على العتبة، ويدخلون بيوتهم بوجوهٍ جديدة، لا يحملون من العمل سوى رزق اليوم ورضاه.

كانت الحياةُ موزّعةً بإنصاف: لكل دنيا وقتها وحدودها؛ فالعمل دنيا، والبيت دنيا، والخارج دنيا ثالثة، لا يتسرّب ضبابُ واحدةٍ إلى الأخرى.

وفي المساء، كانت الجلسة في المقهى أو النادي أو بيت القريب امتدادًا طبيعيًا للحياة، لا عبئًا عليها؛ يتبادلون فيها الكلام والضحك ويستعدّون لصباحٍ جديدٍ دون توترٍ أو خوفٍ من الغد.

أمّا اليوم، فهؤلاء الشباب - الآباء والأمهات - جاؤوا إلى لقاء العيد يحملون عوالمهم على ظهورهم؛ لم يخلعوا دنياهم عند الباب، إذ اختلطت كلها ببعضها حتى فقدت الأسماء معناها.

ذابت الحدود بين العمل والبيت والخارج، فصارت الأيام كتلةً واحدةً متواصلة لا فواصل فيها ولا راحة.

لقد هبطت الطفرة التكنولوجية عليهم كفيضٍ مباغتٍ من النور، أربك البصيرة قبل أن ينير الطريق.

جلسوا متجاورين في اللقاء بأجسادٍ مرهقةٍ وعيونٍ زائغة، كأنهم يشاركون بظلالهم لا بأنفسهم.

يحملون ما لا طاقةَ لهم به، ولا يعرفون فنونَ سياسته.

تحولت رحلةُ الحياة إلى عقوبةٍ يوميةٍ للحياة نفسها، فبهتت النظرةُ، وتبدّلت المشاعر، وأصبح العيد استراحةً قصيرةً من سباقٍ لا يعرف أحدٌ نهايته.

***

«شائبة النعمة والطفرة»

لا توجد نعمةٌ مجانية أو منفردة؛ لا بدّ أن يكون في نسيجها «الشائبة الكامنة في النعمة» التي تُنغّص عليها وتهدّدها بالزوال، وتنطق بأن الكمال لله وحده.

هؤلاء الشباب يعيشون في زمن الطفرة في كل شيء، زمنٍ أشبه بالخيال، بل هو الخيالُ بعينه: الاتصالات، المواصلات، العلوم، الفنون، الدواء، الفكر...

تلك بعض النعم، وهي نعمٌ أسطورية، فيها من بعض بُشريات الجنة.

ولكنهم أُقحموا في مباراةٍ حاميةٍ بلا تدريبٍ ولا قراءة، كما يقول المثل: «من الدار للنار».

ولو جلبتُ لك صندوقًا ممتلئًا بالجواهر، وبدلًا من أن أضعه في يدك قذفتُه في وجهك، فكيف يكون الحال؟

ربما تنحرف بوجهك في اللحظة الأخيرة فيطيش الصندوق على الأرض، فتلتقطه بهدوءٍ وتنتفع به وأنت سالم.

وربما يخطئك الحذر قليلًا، فيصيبك الصندوق ببعض الجروح، يُتلف لك عضوًا، وتبقى النعم غزيرة، لكنها تذكّرك بأن فيضها جاء بثمنٍ فادح.

وربما ـــ وهي القسوة الكبرى ـــ يصدم الصندوق وجهك مباشرة، فيسقطك صامتًا، وتبقى الجواهر بجوار جسدك الساكن، تلمع في العدم كأنها تسخر من ضحيتها.

هذا بالضبط ما فعلته القفزة التكنولوجية والحضارية الحالية؛ قُذفت في وجه الشباب، فكان أندرهم من خرج سليمًا، وأكثرهم

يحمل أثر الارتطام في ملامحه، وبعضهم مضى ضحية البراءة، لم يخطئ سوى أنه وُجد في زمنٍ فاق وعيه وطاقته.

***

«الخطر الحضاري العربي»

كوكب يقوده مجانين القوة والعظمة، يستبدلون سيوف الأمس بالقنابل الذرّية وأسلحة الدمار الشامل.

نُزع من هذا الجيل نعمةٌ كانت مجانية ومضمونة منذ أول الخلق وحتى الأمس القريب.

كان أسلافنا ينظرون إلى ذريّتهم بأملٍ يصل إلى درجة اليقين؛ فإن كان مزارعًا، أيقن أن ذريّته ستحيا للغد في أمان، وسيتعاقبون كما يريد الله، فكان يرى في خياله أحفادًا وأجيالًا تنبت تباعًا، حتى يُصبح الجدّ المائة.

أما اليوم، خاصةً نحن العرب، فلا نجرؤ على أن يخترق خيالنا الغد القريب، فنُخيل - دون كدر - أن أبناءنا سيعيشون يومهم آمنين، أو أن لهم غدًا.

لم يعد الخوف ترفًا يخص الضعفاء وحدهم، فالسفينة حين تغرق لا تميّز أحدًا عن أحد، وسفينة الغد العربي تواجه خطر الغرق.

الغد مجهول، ويخالطه الشكّ، ولا وقت للتنظير.

«ميزة قرب الرحيل»

هناك ميزةٌ ثمينة في قرب الرحيل، وهي شعورك أن الغد المرعب سيكون بدونك، فتعفى من معاناته وآلامه.

مشاعر الأب حين يرى أبناءه يمرّون بكل أطوار حياته فينظر إليها ببرود؛ فالفيلم الذي سيعيشه الابن قد شاهده الجدّ من قبل، ولا جديد تحت الشمس.

لكن حرارة الغد ولهيبه تملأ صدورنا بمشاعر النجاة، فكلّ شيء لم يعد كالأمس.

التعليم بالأمس كان كالتنفس البارد. أما اليوم، فقد أصبح سباق حواجز وأسعارًا سياحية، ومسرح عجائب يُنصب بالنهار ويُهدم بالليل.

ويدفع الطلاب ثمن البناء والهدم، فلا تبقى لديهم ذكرى لفائدةٍ أو حصيلة.

وأرتعب حين أتصوّر أبنائي اليوم وهم يتورّطون في تعليم أبنائهم.

التعليم رحلةُ رعبٍ، وكذلك المهنة، والزواج، والعلاقات، والأكل، والشرب، ولا يتبقى سوى التنفس.

ولهذا يبدو الرحيل المبكر كنعمةٍ خفيّة؛ كمن يلمح النار قادمةً فيغلبها غيابُه قبل أن تبلغه.

***

«صرخة الشباب والمجتمع»

في مسرحية *على الرصيف* نادى حسن عابدين وسهير البابلي:

«مين سرق مصر؟»

وهذا صراخٌ قديم تجاوزناه وتجاوزنا، وأصبحت الصرخة الجديدة:

«مين سرق دسم الحياة والحلم من شبابنا؟»

شبابنا سُرق يومه وغده... فمن المجرم؟

هل هو الذي نشل العمر أم الذي نام حتى دخل السارق وسلب الجميع؟

ولو فُرضت عليّ الإجابة لقلت:

«نحن الذين أجرمنا في حقّ أبنائنا، ربّينا اللصَّ بيننا، ولقّنّاه وسمّناه حتى صار ذئبًا، ثم سألنا بدهشة: من أين جاء هذا الذئب؟»

كيف يتقدّم شعبٌ والقراءة غائبةٌ عن وجدانه؟

فالسفن التي عبرت إلى المستقبل كان شراعها الكتاب، بينما نحن ما زلنا على الشاطئ لا نعرف اتجاه الريح...

***

«خاتمة رمزية»

هكذا صار جيل اليوم يملك أكثر مما حلم به آباؤه، لكنه يعيش أقلّ مما عاشوا.

بين يديه جواهر لا تُحصى، وفي قلبه شجنٌ لا يُرى.

وكل عيدٍ يجتمعون فيه، يبدو كاستراحةٍ قصيرةٍ من رحلةٍ طويلةٍ بلا مظلات، تتقاذفها الريح، وتراقبها السماء بصمت.

ثرثرة العواجيز.. «أنا وحيد»

صادق: أنا وحيد يا وحيد... هل تسمعني؟

هذه خلاصة مشاعري التي لا تفارقني. حتى أنت، الذي كنت أعتبره صديقي الأقرب، لم تعد تقنعني بأنني لست وحدي.

أشعر أنني غادرت منذ زمن، وما يتحرك الآن ليس سوى بقاياي.

ثمة طبقات شفافة وصلبة تحيط بي؛ تمنعني من أن أفهم أو أن يُفهَم ما بداخلي.

لماذا لم أشعر بهذا إلا الآن؟

ماذا تغيّر؟

أهذه هي حصيلة العمر كلّه؟

الوحدة، غياب الفهم، نقص التفاهم... كل ذلك يتكدس في لحظة واحدة.

زكي: المشكلة يا صديقي أننا منذ ولادتنا في عزلة، لكننا نخفيها بالزحام.

زحام الناس، والمهام، والارتباطات، والمنافسات، وزحام الأحلام والهموم.

نصحو لنغرق فيه، وننام لنفلت منه؛ كي لا نواجه السؤال المخيف: هل نحن وحيدون حقًا؟

لم نكن نتبادل مع الناس فهمًا أو تعاطفًا... كنا فقط نتدثّر بهم.

زحام يشبه صالة سينما: ضوضاء، وشاشة لامعة، وعيون مأخوذة بسحر مؤقت، وخيال يضل ثم يعود.

وتظن أنك تحيا في انسجام، بينما لم تختبر يومًا شجاعة السؤال: هل أنا وحيد؟

صادق: عندك حق... اكتشفت أن العمر مرّ بين سؤالٍ وجواب، وأمرٍ وطاعة.

حوارات كثيرة، لكنها لم تكن بوحًا حقيقيًا.

نتحدث مع الزوجة عن تفاصيل الحياة والأولاد، وننسى أنفسنا.
نتحدث مع الأولاد عن مستقبلهم، وننسى أنفسنا.

وفي العمل والمجتمع نغرق في الأخبار والأحداث، وننسى أنفسنا.

نسينا أن نتبادل ذلك الارتباط المعنوي الذي يزيل الوحشة ويهدم الحواجز.

ومفاجأة العمر أن تمضي عشرات السنين لتكتشف أنك لم تفهم أحدًا، وأن أحدًا لم يفهمك.

الحاجة للفهم تأتي بعد فوات الأوان... وما أغربنا وما أعمق غفلتنا!

لماذا لا نشعر بالألم إلا في نهايات الطريق؟

ولماذا يصبح اكتشاف سبب وحدتنا سؤالًا وجوديًا لا نلتفت إليه إلا حين يضيق الوقت؟

زكي: عند ربيع العمر تتوقف الساقية، ويُرفع عن الثور الغِمامة.

يقف مذهولًا من السكون المفاجئ، ويعود إليه السؤال الذي طرده من ذاكرته:

«ماذا أفعل الآن؟»

الثور لم يتدرّب على السير خارج الدائرة التي دارت فيها حياته، فهل يعقل أن يُترك حرًا فجأة؟

نحن لسنا ثيرانًا، لكننا نلتقي معها في اللحظة نفسها:

لحظة السؤال المؤجّل، والضرورة القاسية.

نسأل:

هل أنا وحيد؟ هل أنا غير مفهوم؟ لماذا لا أفهم أحدًا؟

هذا هو ثمن النجاة من الموت المبكر...وثمن عودة الوعي بعد سنوات طويلة من القمع والكبت والإنهاك.

صادق: طيب... ما رأيك أن نحاول أن نفهم بعضنا؟

زكي: هههه... أنت تعلم أنك تطلب المستحيل!

الفهم لا يولد في آخر الطريق.

ليس كلمات نتبادلها، بل بدايات صغيرة:

مشاعر تُقال بسذاجتها الأولى، وأفكار، ورغبات، وبوح،

كلها كانت لتُطرح مبكرًا... قبل أن ييبس الجسد ويشيخ القلب.

الفهم مشكلة هذا الجيل في طفولته، لا في شيخوخته.

ولن يعرفه إلا من تربى على حرية التعبير، وترك للآخر حق التعبير أيضًا.

هناك فقط تلتقي الأنهار. أما نحن... فقد جئنا متأخرين.

فلنعفو عن أنفسنا من الحيرة العقيمة، ونسأل أنفسنا أسئلة أخرى.

صادق: مثل ماذا؟

زكي: مثل: هل أنا إنسان صالح؟ مفيد؟ مسالم؟ مؤمن؟ كريم؟ محب؟ صادق؟

أسئلة بسيطة، لكنها تفتح أعماق الإنسان على نفسه.

صادق: هل تعرف سبب هذا السؤال؟

أثارته أخبار الرفاق الذين يتساقطون فجأة، بلا مقدمات. برحيلهم ترحل أجزاء منا لا نجدها إلا عندهم.

حين يغادر الإنسان مكانًا، يترك فراغًا... ثم يرحل هو أيضًا.

ما نتركه في ذاكرة من رحلوا قليل، مقارنة بما فقدناه.

ولو سبقتني... ستترك فراغًا كبيرًا في بيتي، سأظل في انتظار اللحاق بك.

ولو سبقتك... ستكون أنت من يعاني في غرفة الانتظار الباردة والفارغة، وحيدًا مثلنا جميعًا.

زكي: هل تعلم؟ أنا لا أندم على كل ما مرّ، ولا أتمنى استعادة شبابي، لكني أحمل أمنية مستحيلة... أريد أن أولد من جديد، لكي أحيا حياة مختلفة... حياة بلا إنجاب.

صادق: قلت: هل تقصد أنه لو عاد بك الزمان لن تتزوج؟

زكي: سأتزوج، نعم... ولكن لن أنجب. سأبحث عن امرأة لا تستطيع الإنجاب، أحيا معها، ونتفاهم ونحب... أو نختلف ونفترق. ولو تذوقنا الود والحب والسعادة، ربما نشتاق للأولاد لاحقًا... لا بأس.

لكن سيكون كل شيء قرارًا، وليس تقليدًا لإملاءات آبائنا. سأتبنى طفلًا وطفلة، وأفرغ فيهما كل مشاعري ومشاعرها، كأب وأم، بلا رابطة دم.

صادق: هل تدرك ما تقول؟
لقد عدت إلى نفس الحياة الأولى: زواج وأولاد... فما الفرق؟
زكي: هناك فروق كثيرة.
أولاً: الوعي.
الوعي الذي يجعلني أتزوج بهدوء، ولغرض واحد فقط: الزواج ذاته.
زواج دون خطة لاحقة أو ضغط من المجتمع.
أتزوج من تسعدني، وأطمئن لمؤهلاتي ومؤهلاتها للسعادة.
هذا لم يحدث لنا، ولا لأي أحد آخر.
في حياتنا الأولى، ندخل نفق الزواج بقائمة عاجلة: الزواج، الإنجاب، التعليم، حتى امتداد العمر لتزويج الأحفاد...
خطة غريزية لا تنتهي إلا بالنفس الأخير.
خطة تُفرض تحت ضغط المجتمع وتلقينه لنا، دون أن ندرك أننا مرغمون.
ثانيًا: في حياتي الثانية سأختبر متعة أن أطعم غيري ممن لا ينسب لي.
أمنحهم كل مشاعر الأب والأم بلا رابطة دم... وهذا جديد كليًا.
قلة هم من يجربون هذا الطعم اللذيذ، ويكتشفون فيه حاجة داخلية لم يعرفوها من قبل.
حياة مختلفة... تدريج، تأني، إحسان ليتيم دون أن ينتظر نداء الدم.

صادق: أعتقد أنني فهمتك... أنت تقصد أننا فعلنا مثل كل الناس، والناس ليسوا سعداء، ومع ذلك نفعل مثلهم.

ولم نسعد مثلهم، ولهذا ترغب بخيار آخر، حرًّا، غير ملزم.

زكي:

ابتسم الصديقان، وساد بينهما الصمت والتأمل... مستمتعين بما تبقى بينهما... بينهم فقط.

التفاهم... حين يدور الحديث بينهما، يفهمونه وهي طايرة، بلا قيود، بلا تأويل.

***

لماذا أكتب .. ولمن؟

تروي الأسطورة أن نبيًّا أُوتي القدرة على قراءة النفوس كما تُقرأ السطور؛ ينظر إلى الإنسان فيرى طبقات شخصيته: قوّته وضعفه، عُقده وشهواته، طاقته المضيئة وجروحه الخفية. حتى أصبحت لديه لوحة كاملة للبشر في المدينة.

وقف النبي بين أهلها، وأشار لطبيبة أن تتزوّج عاملاً بسيطًا يكبرها بعشرين عامًا، وأوصى آخر ألا يُنجب لأنه لا يحتمل أبوّة تُرهقه، ونصح ثالثًا بمغادرة بلدته لأن بقاؤه فيها سيوقظ ما يدمّره.

كانوا يؤمنون بقدرته، لكنهم لم يجرؤوا على تغيير ما يألفونه؛ فتزوّجت الطبيبة من ثريّ فعاشت شقاءها، وأنجب الرجل فعانى من أبنائه، وبقي الثالث في بلدته فابتلعه ما كان يمكن أن ينجو منه لو مضى.

كان يمنحهم ما نفتقده جميعًا: الإجابة قبل أن يضيع الطريق.

ومع ذلك كان الخوف من التغيير سدًّا بينهم وبين الحكمة.

***

وفي غياب هذا النبي، يولد سبب آخر يجعل الإنسان يمدّ يده إلى الورق:

«الكتابة».

فالكتابة محاولة بشرية متدرّجة لكشف الطبقات التي تغطي وعينا، ولجمع الحكمة في وعاء واحد، واستخراج الحقائق الدفينة التي لا نسمعها إلا بعدما تفوت. الكتابة ليست وصفًا للأفكار، بل عملية روحية تُعيد ترتيب الفوضى الداخلية.

نحن نكتب لنفهم ما يفيض فينا وما ينقص، لنكشف الورم الذي تضخّم كما نكشف الجرح الذي اتّسع. ونكتب لأن فائض الألم عند كاتب قد يسدّ نقصًا عند قارئ؛ وهكذا تنشأ شبكة توازن خفية بين الأرواح: يتخفّف أحدهم فيُشفى آخر.

وحين يكتب المفكّر، فإنه لا يجمّع المعارف بل يهضمها، فيتحوّل ضجيج الخبرات إلى حكمة، وتعود الأشياء إلى أحجامها الصحيحة. وهنا تصبح الكتابة وسيلة لاكتشاف الطريق الذي كنّا سنمشيه لو امتلكنا شجاعة الإصغاء لصوت نحمله منذ زمن بعيد.

***

كان صديقي يحكي لي عن أول درس في البلاغة في المرحلة الإعدادية. دخل المعلّم الفصل يومها، وطلب من كل طالب أن يكتب ورقة كاملة عمّا يشعر به. وفي الحصة التالية رفع ورقة واحدة، وقال بصوت يملؤه اليقين:

«هل تعرفون من هو أديب هذا الفصل؟»

ثم نادى اسم صديقي.

ومنذ ذلك اليوم صار الفتى تحت عينٍ لا تُخطئ. كان المعلّم يشرح موجّهًا إليه، ويعيد له الموضوع مرارًا لا تُعد، وأحيانًا يحتفظ بالورقة أسابيع حتى يتأكد أنها صارت مرآة صافية لنفس صاحبها. وكل ذلك كان يربك الصبي ويثقل عليه، حتى ضاق صدره يومًا وتبرّم بكلمة عابرة.

لم يغضب المعلّم، لم يعاتب، بل اكتفى بابتسامة هادئة. وبعد انتهاء الحصة ناداه، وأجلسه أمامه، ثم قال:

«يا بُني...

هل تعرف لماذا لا أفعل مع زملائك ما أفعله معك؟

لأنهم يكتبون ليُسلّموا الورقة، وأنت تكتب لأنك تحاول أن تفهم نفسك.

انظر... ما يخرج من اللسان ابنُ اللحظة، وما يخرج من القلم ابنُ العقل.

اللسان زَلوق، يندفع مع العاطفة، أما القلم فيُبطئك قليلًا لتسمع نفسك قبل أن يسمعك الآخرون.

وحين أردّ لك الورقة عشر مرات، فأنا لا أرفضها...

أنا أرفض أن تُسلّم نفسك ناقصة.

أريدك أن تقول ما تعنيه حقًا، أن تُسمّي شعورك دون خوف،

أن تُخرِج ازدحامك الداخلي إلى الضوء،أن تفكّ عُقدك وأنت تراها مكتوبة أمامك.

إذا أتقنت هذا، فلن تتقن الكتابة فقط، بل ستتقن الحياة.

ستكتشف أن الكلمة ليست مهارة، بل نجاة، وأن الإنسان الذي يعرف كيف يكتب عن نفسه...

يعرف كيف يعيش نفسه».

***

في التاريخ الإسلامي، برزت جماعة إخوان الصفا؛ مجموعة من العقول المجهولة والضمائر الحية، كتبت أفكارًا كبرى لا يحتملها سلطان ولا مجتمع. أخفوا أسماءهم، لكنهم تركوا أوراقهم في العتمة، واثقين أن الحقيقة تعرف طريقها، وأن

الزمن - مهما طال - سيمنح ما كتبوه فرصة للظهور. وما زلنا إلى اليوم نغرف من رسائلهم أفكارًا حيّة نحتاجها.

فالفكر عبر التاريخ عرف هذا الأسلوب الخفيّ: عالمٌ يكتب ما لا يستطيع الجهر به، فيطوي أوراقه في صندوق، أو يودعها عند صديق أمين، أو يدفنها في مكتبة مهجورة، على أمل أن يفتحها زمن أنضج، أو جيل أكثر قدرة على الفهم. وكانت تلك الرسائل المحرّمة تُخفى ثم تظهر، لا لتمجيد أصحابها، بل لإنقاذ الناس من تكرار الأخطاء حين تتوفر الظروف ويتهيأ رجال الإصلاح.

ولهذا نكتب أيضًا.

خصوصًا في هذا العصر الذهبي الذي صار فيه النشر أيسر من الهمس. قد نلقي كلماتنا في البحر الرقمي الواسع، فلا يلتقطها أحد اليوم ولا يعلو حولها صوت. لكنها تظل طافية على السطح، تنتظر عينًا تُتقن القراءة، وعقلًا يستطيع الفهم، ولحظة يصبح فيها تطبيقها ممكنًا. فالكتابة ليست معركة مع الحاضر فقط... بل هدية صغيرة نضعها على عتبة المستقبل.

***

لم تُختَم الرسالات بمعجزة تُلمَح وتفنى، بل بكلمات تُتلى وتبقى؛ وكان ختام المعجزات كتابًا... ختامًا لا يبلغه خيال بشر، كأنه يعلن أن الوعي لا يُصاغ بالعجائب ولا بالقوة، بل بما يكتبه العقل وتحتضنه الروح من نور ومعنى.

فالقرآن لم يقدّم رسالة فقط، بل قدّم إشارة: أن سرّ الإنسان في الكلمة؛ في القراءة، والكتابة، وما يشعه المعنى من تهذيب للنفس وارتقاء للفكر. ولهذا، حين تساءلت الملائكة عن حكمة

خلق آدم رغم قابلية البشر للفساد، كان الجواب: تعليم الأسماء... كلمات تهذّب وتردع، وتعلّم الإنسان كيف يكون خيرًا قبل أن يعرف كيف يكون قويًا.

قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾. (لقمان -27)

وهنا يعبر الله عن قدرته وعلمه المطلق ب «الكلمة».

ومنذ حمل الأنبياء رسالاتهم بالكلمة - «عيسى كلمة الله» و«موسى كليم الله» - ظل التاريخ يُساق بهذا الخيط الرفيع. وكانت بدايات النهضات الأوروبية كلمات مكتوبة؛ موسوعات ومعاجم وأفكارًا صاغها علماء أدركوا أن الحضارة لا تُبنى بالقوة وحدها، بل بالحرف الذي يضبط العقل ويرفعه.

واليوم، مهما اتّسعت التقنية وتعمّقت المعرفة، ستبقى الكلمة ميزان الحضارة وروحها؛ نور العقل، وجسر الذاكرة، والبوصلة التي تهدي الإنسان نحو الخير والتهذيب. فحضارة بلا كلمة... حضارة تمشي بلا روح.

***

الكتابة عملية روحية. أسميها: عرق الأفكار.

فكما يفرز الجسد العرق، يفرز الوجدان الأفكار. ولا بد من صيد الخاطر قبل أن يطير مبتعدًا بلا عودة. وقد تبلغ عادة الكتابة درجة يجعل فيها الكاتب يده تتحرك وحدها، وبعد دقائق تنساب أفكار وخواطر لم يكن يدرك أنها نضجت داخله وحان

ميلادها على الورق. وفي هذه العملية راحة وسعادة؛ فالأفكار التي تغزل داخله وتتفاعل وتنمو لا بد أن تُترجَم إلى كلمات.

***

عندما يجلس المريض النفسي بين يدي الطبيب، يبدأ رحلة مع نفسه: أسئلة متتالية تكشف طبقاته الداخلية حتى يصل إلى بذرة العقدة. وحين تُكشف له، يحلّ السلام في نفسه ويبدأ الشفاء.

والكتابة عملية مشابهة تمامًا؛ فالكاتب يدرب نفسه على التعبير عمّا في داخله بلغته الشعورية، ويكتشف أن داخله مليء بأفكار وعواطف وقيم متشابكة وغليظة، في صورة خام وضبابية. تعمل الكتابة كآلة تنظّف وتشذّب هذا الداخل، فيخرج عبر القلم صافياً وجلياً، متفرّدًا، ناضجًا. ومع التدريب المستمر، تصبح قدرته على التقاط ما بداخله سريعة ودقيقة، ويغدو كل ما يكتب انعكاسًا صادقًا لروحه.

بهذا يتحصّل على كنز لا يُقدّر بثمن: القدرة على فهم ذاته؛ فكّ تشابك وجدانها، وتحويله إلى كلمات وحروف، لتصبح عملية الشفاء مستمرة، دائمة الحركة والصيرورة.

ومن يفهم نفسه يفهم الآخرين، فيصبح أعذر للناس، أرحم بهم، ويدرك ما في نفوسهم من «طفولة مزمنة» ناجمة عن عجزهم عن التعبير عن أنفسهم أو فهمها. فالذي يكتب يشفي نفسه ويشفي غيره؛ وحين تسمع كلماته أو تقرأها تشعر بالسلام، وكأنها شفاء للروح والفكر معًا.

وفي القرن الأخير طغت الأيديولوجيات على عقول شباب العرب: الليبرالية، اليسارية، القومية، الوجودية، والجماعات الدينية... دوّامة امتدّت لعقود، جرفت معها أجيالًا كاملة،

ودفعتهم إلى التيه والشقاء والقطيعة مع الواقع. وخلال تلك العقود، بينما كان العالم يضيف حجرًا فوق حجر في بناء حضارته، اكتفى العرب بالوقوف عند الأبواب؛ يستقبلون ما يُصنع هناك دون أن يضيفوا لبنات جديدة للبناء. كأن الدوران في الأيديولوجيا لم يكتفِ بإضاعة شبابهم، بل عطّل قدرتهم على إنتاج المعرفة التي تصنع مصير الأمم.

ومع ذلك، فكل تجربة - حتى القاسية منها - تحمل ثمرتها. وأجمل ما يُهدى للأجيال القادمة هو ألّا يكرروا الخطأ: ألا يتقيدوا بأيديولوجيا تتحول مع الزمن إلى دين جديد. وأن يدركوا أن أثمن ما يملكه الإنسان هو الكلمة المكتوبة؛ فهي التي تحفظ التجارب، وتمنع الوقوع في فخاخ الأيدلوجيا، وتهذّب العقول، وتحول آلام الماضي إلى دروس لا تصدأ. فالكتابة ليست زينة للغة، بل وسيلة صيانة للحاضر، وتحصين للمستقبل. وحين تتوقف الكتابة، يتوقف الوعي، ويغلب التخلف.

***

ربما كانت الذرّة أصغر ما تبصره العين، لكن الله أودع فيها سرًّا يفوق حجمها بلا قياس. فلما كُشف سرّها، خرجت منها طاقة تهزّ الأرض، قد تفني البشر أو تنير لهم العالم. وكذلك الإنسان: يبدو هشًّا، بسيطًا، عابرًا... لكنه يحمل سرًّا أعظم من الذرّة نفسها؛ طاقة كامنة إذا انفتحت في اتجاه واحد غيّرت مصير أمّة، وإذا اتجهت إلى الظلام أطفأت قرونًا من النور.

ولهذا، كما لا نستهين بالذرّة، لا يليق أن نستهين بالإنسان.

غير أن سر الإنسان لا يُكشف بالانفجار، بل بـالكلمة المكتوبة؛ فالكتابة هي الهدوء الذي يفتح مغاليق الروح، ويُخرج تلك الطاقة الهائلة في هيئة نور لا دمار، وحكمة لا فوضى، وأثر يتسلل من جملة إلى جملة، ومن قلب إلى آخر.

فالذي يكتب لا يغيّر نفسه فقط، بل يطلق طاقته الكامنة قطرات صغيرة، ذرّية التأثير، لكنها متتابعة وممتدة، تصنع سعادة خفية تمسّ كل من يمر بكلماته، حتى لو كان في أقصى الأرض.

وهكذا يتحول السرّ الذي أودعه الله في داخله إلى أثر...

والأثر إلى حياة...

والحياة إلى شفاء يتقاسمه البشر.

***

ثرثرة العواجيز

«هل نزرع أم نقلع؟»

صادق:

- حين أكتب، أختار فكرة صالحة، أزينها للناس عسى أن تنشر صلاحًا.

زكي:

- وماذا عن الأفكار الطالحة؟ أليست هي الأولى بالمواجهة؟ ففي دنيا الأفكار يتقدم الهدم على البناء.

صادق:

- ولماذا يتقدم؟ يا صديقي، أنت تعلم أن مواجهة الأفكار المنتهية الصلاحية فادح الثمن؛ سنخسر الناس ونصبح موضع اتهام لا عودة عنه. ولهذا فالأيسر بث فكرة صالحة، لعلها تضيق الخناق على الأخرى الفاسدة.

زكي:

- سألتني: لماذا يتقدم؟ حسنًا.

هل يمكن زراعة أرض قبل حرثها؟

هل يمكن نثر نبات وسط الحشائش والحشرات والنباتات الطفيلية؟

هل يمكن شفاء جرح دون تطهيره من العمق؟

الفكرة الصالحة مثل نبتة وحيدة تُزرع في غابة قديمة، تتزاحم فيها الجذور وتحتفظ كل شجرة بنصيبها من الغذاء والماء والهواء. هذا كله يضيّق على النبتة الجديدة ويظلمها، وقد يقتلها في مهدها، خاصة أن الفكرة الصالحة غالبًا مفردة، بينما الأفكار الطفيلية سرطانية، تنتشر في كل مكان وكل اتجاه.

صادق:

- عندك حق، لكنك تعلم أن تهم «الكفر، الضلال، العمالة، التغريب، الجنون، الحمق...» ستطارد من يقترب من أفكار المجتمع، خصوصًا بعدما صارت اليوم سبيكة من الاجتماع والدين. ولهذا فالهزيمة هي المصير المتوقع لمن يتقدم في هذه المغامرة.

زكي:

- ولهذا أسمي المثقف المصلح اليوم «وريث النبوة». فالأنبياء لم يفعلوا سوى أنهم تصدروا لهذه المهمة: يقلعون الباطل ويزرعون الحق. وفي كل القصص كان الثمن فادحًا والملحمة شاقة، ومع ذلك انتصر الحق في النهاية. الفرق أن الأنبياء مؤيدون بالوحي، أما المثقف المصلح فيهتدي بميراث الوحي ويجتهد في نشر الإصلاح.

صادق:

- أعطني مثالًا، يا صديقي، على «فكرة الغابة» التي طرحتها.

زكي:

- حسنًا. خذ أفكار الحسد والسحر والاستعانة بالجن. هذه ليست أفكارًا متفرقة، بل منظومة غيبية واحدة متضخمة ومتجذرة في نفوس المصريين. تجد البروفيسور الذي نال أعلى الشهادات ينسب ضررًا أو سوء حظ إلى عين أو سحر. وهذا أعلى عقل لدينا. ويمكنك أن تمد خطًا من هذا المثال إلى أسفل، فتجد الصورة ذاتها عند بقية الناس، باختلاف درجات علمهم وفهمهم. هكذا تحولت فكرة واحدة إلى غابة كثيفة تخترق النفوس وتتشابك مع تفاصيل الحياة، فهل تجد الفكرة الصالحة مناخًا ومساحة للحياة داخل هذه الغابة؟ هذا مثال واحد من أمثلة كثيرة.

صادق:

- أتذكر حكاية للإذاعي عمر بطيشة، وكان صديقًا لعمار الشريعي. حكى أنه في إحدى المرات كان الشريعي بدورة المياه، فأحرز

الأهلي هدفًا. فظل الفنان النادر عمار الشريعي في الحمام بقية المباراة، خوفًا من أن يتغير الحظ لو غادر مكانه.

هذه حكاية حقيقية، ورويت عن شخصيات كثيرة بعقلية كبيرة مثل بطيشة والشريعي. نخبة محترمة تركت تراثًا ثمينًا، ومع ذلك لم تتخلص، ولم تحاول أن تتخلص، ولم تجد داعيًا للتخلص من تلك الأفكار الساذجة.

أحكي هذه القصة لأؤكد فكرتك: فالأمر، كما ذكرت، شديد الصعوبة. ولكن... هل نستسلم؟

صادق:

- علينا ألا نستسلم، لكن لا شك أننا في وضع شديد الالتباس. فالأمي منذ قرن كان متواضعًا، لا يتغذى بما يتغذى به الناس اليوم من وجبات «أوهام المعرفة الجاهزة». كان ينصت لنصيحة المتعلم والمثقف ويعمل بها، ولا يجادل طويلًا. أما اليوم، فالأمي – والأمية لم تعد قراءة وكتابة فقط– يرتدي معارف الإعلام والدعاية، فيناطح أكبر المثقفين والعلماء بثقة، ويتهمهم في تخصصهم.

زكي:

- والمثال نفسه ينطبق على العربي اليوم. فهو يرتدي أحدث الثياب، ويستعمل آخر إنتاج العلم الحديث، ويحيا بأدوات الأوروبي والأمريكي. هذا كله يوهمه بالقدرة، وينسيه أنه لم يخترع شيئًا، وأنه بلا إسهام حقيقي في هذا التقدم العلمي والفكري. فلا يجد في ضميره نداء يوقظه ويحثه على العلم والكفاح للحاق بهم. الواقع أشبه بغاز هلوسة ينتشر في الجو، فيشوّش على الوعي.

صادق:

- في القرآن الكريم الناس سواسية؛ لا أنساب ولا أشراف، ولا تزر وازرة وزر أخرى. وقالها النبي ﷺ: «وأيمُ اللهِ لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يدَها».

هذا هو الوحي والدين الصحيح الصريح... والمهجور.

كيف نقنع الناس بأنه لا شرف لأحد بانتسابه لآبائه؟ لقد اجتمع الشيعة والسنة على تقديس النسب وأثره إلى اليوم، وهي فكرة تمتد جذورها إلى الجاهلية. ثم تناسلت بلا حدود، حتى صار كل عربي يبحث له عن قداسة ومكانة وطبقة: قبيلة، أسرة، وظيفة، لقب، فريق رياضي... سلسلة لا تنتهي من مطاردة الشرف بالانتساب. ولهذا يعبد العرب اليوم الألقاب: هذا طبيب، هذا مهندس، هذا لواء، هذا فنان؛ أصنام جديدة تعرقل حياتهم وتزيد الحواجز بينهم.

مجرد الاقتراب من هذه الفكرة مخاطرة كبيرة، لأن أحد جذورها ما يُنسب إلى آل البيت. ولو بقيت في حدود زمن الرسول ﷺ لما كان اضطرار لمواجهتها اليوم، لكنها تمددت حتى غمرت المجتمع كله.

ألا تذكر قضية صاحب جريدة «المؤيد» علي يوسف، وزواجه من ابنة شيخ الأشراف السادات، وتفريق المحكمة بينهما لأنه من نسب وضيع وهي شريفة؟ حادثة شهيرة مرّ عليها قرن، لكنها لم تصبح من التاريخ، بل تغيرت أشكالها واتسعت دائرتها.

زكي:

- صدقت. هذا يعني أن مواجهة جذور أمراضنا تكاد تكون مستحيلة، لا سياسيًا كما نظن، بل مجتمعيًا ودينيًا. وأن أمراضنا الخبيثة ستظل تعمل فينا، ما دمنا نرفض الاعتراف بها، ونقدّسها، ونراها دواءً لا داءً.

صادق:

- هذه فكرة واحدة نعجز عن مواجهتها، فكيف ببقية الأفكار التي:

* تخدرنا عن الواقع وتوهمنا بما يزيفه.

* تجعلنا نؤمن بسلسلة الحسد والسحر والجن، فتكدّرت علاقاتنا وتقطعت صلاتنا.

* تجعلنا نيأس من الفعل، فلا يخطر ببالنا أننا مسؤولون، ونعلّق كل شيء على مؤامرة أو سياسة.

نحن، يا صديقي، صرعى أفكارنا الفاشلة التي نتدثر بها في كل وقت ومكان.

نرى التلوث نظافة، ونرى الغرور والتشدق بالألفاظ الأعجمية تحضرًا ورقيًا، ونرى الكرامة في الإهانة، والإهانة كرامة...

وهذا جنون.

زكي:

- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ - (البقرة – 31)

نحن لم نبدأ بعد في وضع المسميات في مواضعها الصحيحة، فكيف نرشد دون أن نُبتلى بالجنون؟

لا شك أن المهمة صعبة، لكني أبشرك بسنة من سنن الله: أن الذين يصرّون على الحق يعملون بمثابرة وإخلاص، ولا يضيع الله ثمرة تعبهم أبدًا، لكنها لا تثمر إلا فجأة، وفي وقت تُخفى أسبابه ومقدماته.

وخير مثال السيرة النبوية: متى دخل الناس في دين الله أفواجًا؟ وما مقدمات هذا الفتح؟ ستجده قفزة بلا مقدمات ظاهرة.

وحتى في التاريخ الحديث، من كان يتخيل أن كلمات روسو وفولتير ستشعل الثورة الفرنسية؟

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾- (التوبة: 105)

***

الفهرست

الإهداء.....3
المقدمة.....5
الحقيقة العارية.....8
الكنيات والألقاب.....10
استعجال العلاقات.....11
جمال المظاهر والزيف.....11
النفاق والحرية.....12
الشباب والحقيقة.....13
العلم والمعرفة هما الحل.....14
تلقين الحلم الضال.....15
العد على الأصابع.....21
عقبات بلا جذور.....28
الحوار البناء.....34
الفتح.....38
طعم الحياة على الشفاه.....46
مصر.. مسرح كبير.....53
النوم في العسل.....60
البدايات الصغيرة.....66
الإهانة.....72
النقد والنية.....80

البطولة.....88
الحرافيش وثلاث لوحات مصرية 94
قُبلة فرنسية - عن خداع الصورة وبؤس الحقيقة.....101
حين يبقى الفأر في القلب.....108
سكة أخرى للسلامة 114
زر المعرفة.....111
الإجابات الصغيرة (قصة قصيرة) 127
الإله المستتر.....132
الشفاء من فيروس الدروشة.....139
قيم بلا مساومة.....145
الطريق الثالث 151
العطس في طبق الحياة.....159
الغواية.....163
الثروة وقططها.....173
مسافرون.....176
ثرثرة العواجيز (أنا وحيد) 183
لماذا أكتب ولمن أكتب.....189
ثرثرة العواجيز - هل نزرع أم نقلع؟.....197

كتاب طيوف

في مشهد مسرحيٍّ مستوحى
من «بين القصرين» لنجيب محفوظ
يتزاحم الأبناء حول الطبلية
ويبقى الطفل الأصغر
خائفًا من ضياع نصيبه
فمٌ صغير، يدٌ قصيرة
ولقمةٌ عصفور
فيختار حلًا صادمًا
...يعطس في الطبق كلّه
فيفسده على الجميع
ليبقى وحده
مشهدٌ يبدو ساخرًا
لكنه يكشف منطقًا قاسيًا
ما زال يحكم عالمنا
حين لا نضمن نصيبنا
نُفسد المائدة
هذا الكتاب لا يبحث عن أبطال
بل يتأمّل كيف تحوّل
«العطس في طبق الحياة»
من حيلةِ فردٍ خائف
إلى سلوكٍ عام
يُقصي الآخرين
ويهدر أكثر مما يُشبع

كتاب طيوف